

قافلة الزيت

رَمَضَان ١٤٠٢هـ / يُونَيْة - يُولَيْة ١٩٨٢م



عيسى بن
درة الجزيرة العربية وموطن الطبيعة الخلابة

قافلة الزيت

العدد السابع / المجلد الثلاثون

رَمَضَان ١٤٤٢هـ / يُونَيْسَة - يُولَيْيَة ١٩٨٢م

تصدر شهر لإعـن شركة ارامكو كلو طفيها
إدارة العلاقات العامة

المصنفات

صندوق البريد رقم ١٣١٩
الظهران - المملكة العربية السعودية

توزيع مجاني

المدير العام : فيصل محمد البسام

المدير المسؤول : إسماعيل إبراهيم نواب

رئيس التحرير : عبدالله حسين العامري

لحزب المساجد : عوني ابوكشك

• جميع المراسلات باسم رئيس التحرير

• شكل ما يشتر في قافية الزيت يُعبر عن آراء الكتاب بغيرهم

• ولا يبرأ الصلوة عن رأي القافلة أو عن اتجاهها

• يجوز إعادة نشر المواضيع التي تظهر في القافلة

دون إذن مسبق على أن تذكر كمتصدر

• لا تقبل القافلة إلا المواضيع التي لم يسبق نشرها

صورة الغلاف:

جانب من بلدة آل سليم التي تعكس سمات
التطور الذي تعيشه المنطقة ، حيث تجمع بين
التراث القديم والحديث وجمال الطبيعة

تصوير : علي عبد الله خليفة



٣٢



١٨

في ذمة الله يا خالد

بِقُلُوبٍ يَتَصَرَّفُهَا الْحُزْنُ وَالْأَسَى ، وَبِنَفُوسٍ مَشْقَلَةٍ بِالْمَرَارَةِ وَالْأَلَمِ ، وَدَعَتْ
الْمَلَكَةَ الْعَرَبِيَّةَ السَّعُودِيَّةَ وَالْعَالَمَانَ الْعَرَبِيَّ وَالْإِسْلَامِيَّ عَصْرَ يَوْمِ الْحَادِي وَالْعَشْرِينَ مِنْ
شَعْبَانَ ١٤٠٢ هـ قَاتِلًا مِنْ قَادَةِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَوَاحِدًا مِنْ أَبْرَأَتِهَا الْمُخْلِصِينَ ،
هُوَ جَلَالَةُ الْمَغْفُورِ لَهُ ، الْمَلِكُ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، طَيِّبَ اللَّهُ تَرَاهُ .

فَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي أُرْخَتْ فِيهِ الْفَجِيعَةُ سَدَّ وَلَهَا عَلَى الْعَالَمِينَ الْمَكْرِيَّ
وَالْإِسْلَامِيَّ ، كَانَ هَذَا الْعَدَدُ مَآثِلًا لِلطَّيْعِ مِمَّا تَقَدَّرَ أَفْرَادَ صَفَحَاتِ لَمَّا شَرَّ
جَلَالَتِهِ وَالْإِنْجَازَاتِ الضَّخْمَةِ الَّتِي تَحَقَّقَتْ إِبَانَةَ عَهْدِهِ الزَّاهِرِ .

وَبَفَقْدِ خَالِدٍ ، تَكَلَّتْ الْأُمَّةُ الْعَرَبِيَّةُ وَالْإِسْلَامِيَّةُ رَجُلًا فَنًا وَقَاتِلًا مُخْلِصًا ، كَرَسَ
وَقْتَهُ وَفُكْرَهُ وَطَاقَتَهُ لِحُدُودِ دِينِهِ وَبَلَادِهِ وَأَمْتِهِ ، وَلِنَصْرِ الْعَدْلِ وَالْقَضَايَا الْإِنْسَانِيَّةِ .
لَقَدْ مَضَى خَالِدٌ فِي هَذَا الْوَقْتِ الْعَصِيبِ مِنْ تَارِيخِ أُمَّتِنَا الْعَرَبِيَّةِ وَالْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي
تَمَرُّ الْيَوْمَ بِأَحْدَاثٍ جَسَامٍ وَتَحْدِيَّاتٍ عَظَامٍ .

لَقَدْ كَانَ لَذَلِكَ الْخُطْبُ الْجَلِيلُ وَالْمَصَابِ الْفَادِحُ رَنَةً أَسَى وَحُزْنٌ عَمِيقٌ
فِي قُلُوبِ الْمَلَائِكَةِ مِنَ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ نَظَرًا لِمَا لَجَلَّالَتِهِ مِنْ تَارِيخٍ حَافِلٍ بِجَلَالِ
الْأَعْمَالِ وَالْمَوَاقِفِ الشَّجَاعَةِ وَالْحُكْمَةِ الثَّاقِبَةِ وَالْبَصِيرَةِ النَّافِذَةِ وَالرَّأْيِ الرَّاجِحِ .
نَعَمْ .. لَقَدْ مَاتَ خَالِدٌ ، وَسَبَقَتْ سَيَرَتُهُ الْعَطْرَ وَمَآثِرُ الْجَلِيلَةِ ذَكَرَى حَيَّةً
فِي قُلُوبِ الْأَجْيَالِ الْحَاضِرَةِ وَالْمُقْبِلَةِ ، وَسَيَسْجُلُهَا التَّارِيخُ عَلَى صَفَحَاتِهِ الْمَشْرِقَةِ
لِتَبْقَى نَبْرَاسًا سَاطِعًا فِي مَسِيرَةِ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ الْحَضَارِيَّةِ .

لَقَدْ بَدَلَ فِي حَيَاتِهِ أَكْبَرَ النُّصَحِيَّاتِ مِنْ أَجْلِ تَوْحِيدِ كَلِمَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ
وَأَعْلَاءَ شَأْنِهَا .. فَلِلْحَقِّ عَاشَ وَمِنْ أَجْلِهِ قَضَى .. تَعَمَّدَ اللَّهُ بِوَسْعِ
رَحْمَتِهِ وَأَسْكَنَهُ فُسَيْحَ رِضْوَانِهِ وَأَنْزَلَهُ مَكَازِلَ الْأَبْرَارِ وَالصَّادِقِينَ ، وَحَسَنَ
أَوَّلَتَهُ رَفِيقًا .. وَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .

هَيْئَةُ التَّحَرُّرِ

حكمة الله في تشريع الصوم

و- (أحمد محمد العري / القاهرة)

كالصلاة . وأن تكون منها العبادة المالية .. كالزكاة ، وأن يكون من العبادات ما يجمع بين البدن والمال .. كالحج ، والجهد في سبيل الله . وقد تكون هذه العبادة قولاً وتضرعاً .. كالدعاء ، وذكر الله ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . وشاءت حكمة الله سبحانه أن يكون من هذه العبادة ، ما ليس قولاً ولا فعلاً ، ولكنه كف ، وامتناع ، وسلوك وصبر .. وهو الصوم . امتناع عن الأكل والشرب ، ومباشرة النساء من طلوع الفجر إلى غروب الشمس .

وهذا الامتناع والترك - ان بدا سلبياً في مظهره .. فهو عمل ايجابي في حقيقته وجوهره ، إذ هو كف النفس عما تشتهيه ، بنية التقرب إلى الله تعالى ، فهو بهذا عمل نفسي ارادي ، له ثقله في ميزان الحق والخير ، والقبول عند الله سبحانه .

النية إذن هي الفصيل في كل فعل وترك . وهل الدين إلا فعل " وترك " ؟ فعل " للمأمور به ايجاباً أو استحباباً ، وترك " للمنهى عنه تحريماً أو كراهة . ولقد اختار الله - بحكمته - لهذا الصيام شهراً مباركاً كريماً ، له في نفوس المسلمين مكان كريم .. فهو الشهر الذي نزل فيه أول فوج من آيات القرآن العزيز ، حملها الروح الأمين ، إلى قلب النبي الهادي الكريم .. « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه » .

وجدير بشهر اصطفاه الله ، لينزل فيه أفضل وآخر كتبه ، إلى خير خلقه ورسله ، أن يكون أهلاً ليفرض فيه تلك العبادة السنوية « الصيام » .

لقد فرض الحق سبحانه على عباده الصيام في رمضان ، وما فرضه إلا لحكم بالغة ، وأسرار عليا ، نعرف منها ما نعرف ، ونجهل منها ما نجهل ، ويكشف

سائر حكمة الله في خلقه .. أن يخلق الإنسان لغاية عظمى ، وحكمة جلّى ، أرادها سبحانه ، وهي أن يكون هذا الإنسان خليفة في الأرض ، دون سائر المخلوقات .

« وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة .. قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ .. قال اني أعلم ما لا تعلمون » (١) .

والحق سبحانه وتعالى .. عندما خلق الانسان ، لم يتركه سدى ، يهيم على وجهه ، بل هيا له الأسباب ، وسخر له الكائنات جميعاً ، من أجل أن يستمر بقاءه ونسله على الأرض .. فالذي يتأمل الكون المادي حولنا ، يرى كل شيء فيه يحيا ويعمل لغيره : فنحن نرى أن الماء للأرض ، والأرض للنبات ، والنبات للحيوان ، والحيوان للإنسان .. والإنسان لمن ؟ .. انه الله .. لعبادة الله الأحد ، وللقيام بحق الله ، وحمد الله ، وشكر الله ، ولا يجوز أن يكون الانسان لشيء آخر في الأرض ، أو في الأفلاك .. لأن كل العوالم العلوية والسفلية مسخرة لله ، وتعمل وفق مشيئته واراادته .

إذن .. فقد خلق الله الانسان لعبادته .. ومقتضى عبادة الانسان لله ، أن يخضع أموره كلها لما يحبه الله تعالى ويرضاه ، وأن يكيف حياته وسلوكه وفقاً لهداية الله وشرعه ، فإذا أمر الله أمراً ، أو نهى نهياً ، أو أحل شيئاً ، أو حرم غيره .. كان موقفه في ذلك كله الإذعان والامتثال والخضوع ..

« سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » .

وإذا كانت حكمة الله من خلقه للانسان « العبادة » . فقد كانت مشيئته - سبحانه - أن تتنوع هذه العبادة ، بحيث تؤثر في عقله ، وبدنه ، وروحه ، بل وكل حواسه .. فقد أراد الله أن تكون منها العبادة البدنية ..

الزمن عن بعضها ما يكشف ، فعلينا أن نتأمل حكمة الله من وراء هذا الجوع والعطش ، وأن ندرك حكمه ، حتى نؤديه كما أراد الله ، لا كما اشتهاه الناس .. وهنا نقف قليلا لتقرير أمر هام .. ان أسرار هذا الصوم — كما أرادها الله جلت حكمته ، لا يمكن أن تُدرك إلا إذا أدركنا سر هذا الانسان .. وهذا يجعلنا نطرح سؤالا جوهريا : ما الانسان ؟ وما حقيقته ؟

هل هو هذه الجثة القائمة .. وهذا الهيكل المتعصب ؟ هل هو هذه المجموعة من الأجهزة والخلايا واللحم والدم ، والعظم والأعصاب ؟ إن كان الانسان .. هذه مواصفاته .. فما أحقره وما أصغره !!

نعم .. ليس الانسان هو ذلك الهيكل المحسوس ، إنما هو روح سماوي يسكن هذا الجسم الأرضي ، وسر من الملائكة الأعلى في غلاف من الطين . « إذ قال ربك للملائكة اني خالق بشرا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » (٢) . ذلكم هو الانسان بجوهره ، كما أراد الله ، روح علوي ، وجسد سفلي ، فالجسد بيت ، والروح صاحبه وساكنه ، والجسد مطية ، والروح راكب مسافر ، ولم يخلق البيت لنفسه ، ولا المطية لذاتها ، ولكن البيت لمصلحة الساكن ، والمطية لمصلحة الراكب ، فما أعجب هؤلاء الآدميين ، الذين أهملوا أنفسهم ، وعنوا بمساكنهم وجعلوا من ذواتهم خداما لمطاياهم ، وأهملوا أرواحهم وعبدوا أجسادهم ، فللجسد وحده يعملون ، ولاشباع غرائزه الدنيا ينشطون ، وحول بطونهم وفروجهم يدورون (٣) .

أولئك الذين وصفهم الله بقوله : « رأيتم من اتخذ الله هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلا ، أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون .. ان هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » (٤) .

ذلكم هو الانسان روح وجسد ، فلجسده مطالب من جنس عالمه السفلي ، وللروح مطالب من جنس عالمها العلوي ، فإذا أخضع الانسان أشواق روحه لمطالب جسده ، وحكم غريزته في عقله ، استحال من ملاك رحيم إلى حيوان ذميم ، وربما إلى شيطان رجيم .. أما إذا سما الانسان بنفسه ، وأيقن سر الله فيه ، وحكم جانبه السماوي في جانبه الأرضي .. وغلب أشواق الروح على نوازع الجسد ، فقد صار ملاكا ، أو خيرا من

الملاك « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. أولئك هم خير البرية » (٥) .

ومن هنا فرض الله سبحانه وتعالى « الصيام » عبادة روحية ، عبادة تحرر الانسان من سلطان الغرائز ، وتطلقه من سجن جسده ، وتتغلب على نزعات شهواته ، وتجعله أشبه بالملائكة . فليس عجيبا أن يرتقي روح الصائم ، ويقرب من الملائكة الأعلى ، ويقرع أبواب السماء بدعائه فتفتح ، ويدعو ربه فيستجيب له ، ويناديه فيقول سبحانه : « ليك عبيد لبيك » . من أجل ذلك قال النبي المصطفى ، صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا ترد دعوتهم : الصائم حين يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم » (٦) .

وإذا كان في الصيام فرصة .. أي فرصة لتقوية الروح ، ففيه فرصة ، أي فرصة لتقوية الإرادة . فالصائم يجوع وأمامه شهى الغذاء ، ويعطش وبين يديه بارد الماء ، ويعف وبجانبه زوجته ، ولا رقيب عليه في ذلك إلا سبحانه ، ولا سلطان إلا ضميره ، ولا يسنده إلا إرادته القوية الواعية ، يتكرر ذلك نحو خمس عشرة ساعة أو أكثر كل يوم ، وتسعة وعشرين يوما أو ثلاثين في كل عام .

فأي مدرسة تقوم بتربية الإرادة الإنسانية ، وتعليم الصبر الجميل كمدرسة الصيام التي يفتحها الإسلام اجباريا للمسلمين في رمضان ، وتطوعا في غير رمضان ؟

ولأن رمضان يعلم الصبر نسبة الرسول إليه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « صوم شهر الصبر ، وثلاثة أيام من كل شهر ، يذهبن وخز الصدر » ، وروي عنه في حديث آخر : « لكل شيء زكاة ، وزكاة الجسد الصوم ، والصوم نصف الصبر » (٧) . وإنما كان « الصوم نصف الصبر » لأن في الانسان قوى ثلاثا : قوة شهوية ، كالتى في البهائم ، وقوة غضبية كالتى في السباع ، وقوة روحية كالتى في الملائكة ، فإذا تغلبت قوته الروحية على احدهما كان ذلك نصف الصبر ، وفي الصوم يتغلب « المسلم » على قوته الشهوانية من بطن وفرج ، فكان الصوم حقا نصف الصبر .

وحسبنا أن نتذكر نداء النبي المصطفى — صلى الله عليه وسلم — للشباب :

« يا معشر الشباب : من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء » (٨) .

وحكمة الهية أخرى — أرادها الحق سبحانه من

الصوم .. وهي معرفة المرء بأنعام الله عليه .. فالإنسان إذا غمرته النعم ، قل شعوره بها ، النعم لا تعرف إلا بفقدانها ، فالحلو لا تعرف قيمته إلا إذا ذقت المر ، والنهار لا تعرف قيمته إلا إذا جئن عليك الليل « وبضدها تتميز الأشياء » . ففي الصوم .. معرفة لقيمة الطعام والشراب والشبع والري ، ولا يعرف ذلك إلا إذا ذاق الجسم حرارة العطش ، ومرارة الجوع . ومن أجل ذلك ورد أن النبي المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « عرض عليّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً ، قلت : لا يارب ، ولكن أشبع يوماً ، وأجوع يوماً .. فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعت شكرتك » . وحمدتك « (٩) » .

وحكمة الهية ثالثة .. وهي الشعور بالعبودية الكاملة لله . ففي الصوم تمام التسليم لله ، وكمال العبودية لرب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، وهذه الحكمة هي القدر المشترك في كل عبادة ، والهدف الأسمى من كل فريضة ، ولن تكون العبادة عبادة ، ولا العبد عبداً إلا بها . يقول رب العباد : أمرت ونهيت ، ويقول العباد : « سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير » (١٠) .

وأظهر هذا الخضوع والتسليم والعبودية يكون في الصوم خاصة .. فالصائم يجوع ويعطش ، وأسباب الغذاء والري أمامه ميسرة ، لولا حب الله ، والرغبة في رضاه ، وإيثار ما عنده ، ولهذا نسب الله الصيام إلى عزته وجلاله ، وتولى جزاء الصائمين بنفسه ، فقال جل جلاله في حديث قدسي : « كل عمل ابن آدم له إلا الصيام ، فإنه لي وأنا أجزي به ، يدع طعامه من أجلي ، ويدع شربه من أجلي ، ويدع لذته من أجلي ، ويدع زوجته من أجلي » (١١) .

ومن المهم .. ألا نغفل الجانب الصحي للصيام ، فهو بالإضافة إلى كل ما سبق فرصة لتقوية البدن ، فإن كثيراً مما يصيب الناس من أمراض ، إنما هو ناشئ من بطونهم ، التي يتخمون بها بكل ما تشتهي ، غير مفرقين بين ما ينبغي ، ولهذا كانت إشارة النبي ، صلى الله عليه وسلم :

« ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم أكيلات يُقِمُّن صلبه ، فإن كان لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشربه ، وثلث لنفسه » (١٢) .

وإذا كانت البطن مستنقع البلايا ، وكانت المعدة بيت الداء ، فإن الحمية - أي الامتناع عن الأكل -

رأس الدواء . وليس كالصوم فرصة تستريح فيها المعدة ويتخلص الجسم من كثير من فضلاته الضارة . لذلك أمرنا المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، « صوموا تصحوا » (١٣) والله سبحانه وتعالى رؤوف بعباده ، لذلك فهو جل جلاله - لا يكلف عباده فوق طاقتهم .. « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » . وقد اقتضت رحمته وحكمته في تشريع الصوم ، أن يكون هناك جانب من التخفيف على عباده غير المستطيعين ، لأسباب خارجة عن إرادتهم كالمريض أو السفر أو الجهاد . وهذا مبدأ نزل به القرآن منذ مطلع فجر الدعوة في مكة .. ففي سورة المزمل جاء قول الله : « علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض ، يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون في سبيل الله ، فاقربوا ما تيسر منه » (١٤) . لذلك كان هذا التخفيف رخصة انشرح لها قلب الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين - وانتفعوا بها بعد أن فقهوا مغزاها من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ونهلوا من نبع النبوة ، ولم يحجروا ما وسع الله ، وكيف لا ، وقد تعلموا في مدرسة النبوة :

« أن الله يحب أن تؤتى رخصه ، كما يكره أن تؤتى معصيته » (١٥) .

ذلكم هو الصيام في الإسلام ، لم يشرعه الله تعذيباً للبشر ، ولا انتقاماً .. كيف ؟ وقد ختم الله سبحانه وتعالى آية الصوم بقوله : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » (١٦) . وإنما شرعه - جلت حكمته - إيقاظاً للروح ، وتصحيحاً للجسد ، وتقوية للإرادة ، وتعويذاً على الصبر ، وتعريفاً بالنعمة ، وتربية لمشاعر الرحمة ، وتدريباً على كمال التسليم لله رب العالمين □

- (١) سورة البقرة ، آية ٣٠ .
- (٢) سورة / ص ، آية ٧١ ، ٧٢ .
- (٣) الدكتور يوسف القرضاوي - العبادة في الإسلام ، ص ٢٧٣ ، ط . بيروت .
- (٤) سورة الفرقان ، آية ٤٣ ، ٤٤ .
- (٥) سورة البينة ، آية ٧ .
- (٦) رواه الترمذي وأحمد وابن ماجه .
- (٧) رواه ابن ماجه .
- (٨) رواه البخاري .
- (٩) رواه الترمذي .
- (١٠) سورة البقرة ، آية ٢٨٥ .
- (١١) رواه أبو خزيمة في صحيحه .
- (١٢) رواه ابن ماجه والترمذي .
- (١٣) رواه الطبراني .
- (١٤) سورة المزمل ، آية ٢٠ .
- (١٥) رواه أحمد .
- (١٦) سورة البقرة ، آية ١٨٥ .

د. بكر عبت الله بن بكر

أحمد ولاجره : سليمان نصر الله / هيئة التحرير



لم يكن لقائنا بالدكتور بكر عبد الله بن بكر ، مدير جامعة البترول والمعادن بالظهران لقاء رسميا ، كما هو مألوف في الأوساط الصحفية ، بل كان بمثابة دردشة ودية ، أو قل رحلة سياحية حملنا فيها معاليه عبر أفكاره وطموحاته وخبراته المتعددة . فعندما اتصلت به هاتفيا مبديا رغبتني في مقابلته ، سألتني بظرفه المعهود : هل يكفيك نصف ساعة يا أبا داود ؟ فأجبت على الفور : ان نصف ساعة من وقتك الثمين كثير عليّ . قلت ذلك وأنا موقن في قرارة نفسي أن ساعات طويلة لا تكفي لمثل هذا اللقاء الفكري . وتم اللقاء ، ومنحني معاليه من الوقت ما لم أكن أتوقع .

مدير لها . هذا بالإضافة إلى كونه عضوا في مجالس عدد من الجامعات والمنظمات والجمعيات منها جامعة الملك سعود ، وجامعة الملك فيصل ، وجامعة الملك عبد العزيز ، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ومجلس أمناء جامعة قطر ، والكلية الجامعية بالبحرين ، واتحاد الجامعات العربية ، والمنظمة العالمية للعلوم والتكنولوجيا والإنماء بكندا ، والجمعية الإدارية الأمريكية للمهندسين وغيرها . هذا وقد أضفى الدكتور بكر على هذا اللقاء من عمق تجربته وسعة اطلاعه على مجريات الأمور حيوية انعكست أبعادها على الموضوعات التي تطرقنا إليها في حديثنا معه ..

■ لا بد أن تكون قد لمست بعض الأوضاع الخاطئة في العملية التعليمية خلال المراحل الدراسية التي مرت بها . ثم قمت بتصحيحها أو تعديلها إلى الأفضل عندما أصبحت في وضع يمكنك من ذلك. حينذا لو حدثنا عن مثل تلك الأوضاع والمواقف .

لا شك أن كل انسان ، خلال المراحل التعليمية التي يمر بها ، ترسب في نفسه أشياء كثيرة ويتأثر بسلوكيات شتى . ويكون آراءه الخاصة به والتي يتصور أنها على صواب ثم يتضح له خطأ بعضها أو كلها عندما يصبح أكثر نضجا . وأنا عندما أراجع

والدكتور بكر عبد الله بن بكر ، عدا عن كونه مديرا لواحد من أرفع الصروح العلمية والتقنية في العالم العربي ، فهو من رجال التربية البارزين في المملكة العربية السعودية ومن إدارييها المرموقين ، شارك في كثير من المؤتمرات والندوات المتعلقة بالتربية ، والتعليم ، والتخطيط ، والتنمية ، كما نشر العديد من المقالات المتنوعة حول موضوعات حيوية بالغتين العربية والانكليزية . وهو ينطلق في كل ذلك من خلفية علمية وعملية وإدارية متعددة الجوانب . فبعد مرحلة الدراسة الثانوية في مدينة الطائف ، التحق بجامعة تكساس بالولايات المتحدة الأمريكية ، حيث نال درجة البكالوريوس في هندسة البترول . وعاد ليعمل مهندسا للبترول في شركة الزيت العربية الأمريكية « أرامكو » . ثم انتقل ليسهم في تأسيس كلية البترول والمعادن الوليدة . وبعد تأسيس الكلية . واصل مسيرته الأكاديمية ، فنال درجة « الماجستير » في إدارة الأعمال من جامعة ستانفورد . ثم درجة الدكتوراه في إدارة الأعمال من جامعة جنوب كارولينا بالولايات المتحدة الأمريكية . هذا وقد عمل بوظيفة مهندس بترول في شركة الزيت العربية الأمريكية « أرامكو » لفترة من الزمن ثم عمل كمساعد لمحافظ مؤسسة بترمين . وبعد ذلك انتقل إلى كلية البترول والمعادن قبل أن تتحول إلى جامعة حيث شغل منصب مساعد لعميد الكلية . ثم أصبح عميدا للكلية فيما بعد ، وعندما جرى تحويل الكلية إلى جامعة أصبح أول

عوامل مختلفة . وأعتقد أن هذه الصعوبة ليست مقصورة على المملكة بل هي موجودة في جميع أنحاء العالم . أما بالنسبة لجامعة البترول والمعادن فاستطيع القول ان الصعوبة تنبع من كون الطالب في المرحلة الثانوية أقل انضباطاً منه في رحاب الجامعة . ففي الجامعة يستقل الطالب عن أهله وذويه وينسلخ إلى حد ما عن بيئته التي نشأ فيها لئلا ينتقل إلى مجتمع جديد عليه ، مما يقتضيه التكيف مع هذا الوضع الجديد تدريجياً . وإذا أضفنا إلى هذا صعوبة الدراسة في الجامعة بالمقارنة بالدراسة في المرحلة الثانوية ، نجد أن الطلاب يواجهون صعوبات في الشهور الأولى ، ويتضح ذلك من نسبة الأعداد التي تسرب من الجامعة في هذه الفترة .

■ ما وجه الصعوبة التي يواجهها الطلاب بالنسبة للدراسة الجامعية في السنة الأولى وهل لمناهج المرحلة الثانوية أثر في ذلك ؟

يتم التدريس في جامعة البترول والمعادن باللغة الانكليزية ، ومستوى تدريس اللغة الانكليزية في المدارس الثانوية لا يسمح للطلاب بمتابعة المحاضرات بسهولة ، الأمر الذي يضطرنا إلى اعطاء الطلاب دورات مكثفة باللغة الانكليزية لمدة سنة كاملة ، حتى يكتسب الطلاب المهارات اللازمة لمتابعة المحاضرات وفهمها . ونحن في الجامعة نترك ما يواجهه الطالب من صعوبات في السنة الأولى من المرحلة الجامعية ، وهي صعوبات يمكن تذليلها إذا ما تعود الطالب على الانضباط والمواظبة والتعاون مع المسؤولين في الجامعة ومع الأساتذة . وهذه الصعوبات في رأيي تمثل ضغوطاً على الطالب ، ولكنها ضغوط في سبيل الوصول بالطالب إلى النتيجة المرجوة ، وهي الخروج من السنة الأولى بوضع أفضل بالنسبة إلى اللغة الانكليزية والانتظام والتكيف مع الوضع في الجامعة .

■ ذكرت أن نسبة من الطلاب تسرب من الجامعة ، فما هي في رأيك الأسباب لهذه الظاهرة وما هي الإجراءات العلاجية التي تقرحها للحد من تلك الظاهرة ؟

هذه الظاهرة عالمية وإلى حد ما صحية ، لأن أي جامعة تحرص على مستوياتها العلمية تطالب الطالب الوصول إلى هذه المستويات . وفي جامعة البترول والمعادن تصل نسبة التسرب نحو عشرين في المائة في السنة التحضيرية . ويعزى التسرب في هذه الفترة إلى أسباب شخصية أو أكاديمية أو اجتماعية ، فكثيراً ما نرى أن طالباً يترك الجامعة لصعوبة الدراسة فيها ، فهو يتلمس لنفسه مخرجاً في جامعات أخرى تتلاءم مع قدراته . ونحمد الله على أن عدد الجامعات والكليات في المملكة يزداد سنة بعد أخرى مما يوفر للطلاب البدائل الكثيرة . وأود هنا أن أشير إلى أن الفكرة الأساسية التي بنيت عليها الجامعة هي إمداد المملكة بما تحتاجه

الفرات الدراسية التي مررت بها استطع أن أشير إلى بعض الأوضاع الخاطئة ، منها جمود المناهج من ناحية ، وعدم اعطاء الطالب المرونة الكافية لينمو وتتضح ميوله واتجاهاته من ناحية أخرى . كما لاحظت التردّي المستمر في المستوى العلمي للأستاذ ، أضف إلى ذلك وجود هوة سحيقة بين الطالب والأستاذ قد يكون مردها كثرة عدد الطلاب في الفصل الواحد وتدني كفاءة المدرس . أما بالنسبة للمرحلة الجامعية فإن أحد الأخطاء التي لمستها هو توجيه الطلاب إلى تخصصات لا تتلاءم مع امكاناتهم وقدراتهم وميولهم الطبيعية . فهناك على ما يبدو شيء مفقود في عملية ربط الواقع بالنظريات ، أي ربط ما يدرسه الطالب بالواقع الموجود في الحياة . تلك هي بعض الأوضاع الخاطئة التي لمستها خلال مسيرتي العلمية . وقد عملت جاهداً بالتعاون مع رجال التربية في المملكة على تلافي هذه الأخطاء بتطوير المناهج لمسيرة العصر الذي نعيش فيه ، وتصميمها على نحو يسمح للطلاب باختيار مواد معينة سواء في حقل تخصصه أو خارجه لتنمية قدراته الذاتية والاتجاه إلى ما يرغب . كما عملنا في جامعة البترول والمعادن على ربط الأستاذ بالطلاب ربطاً وثيقاً عن طريق تحديد عدد طلاب الفصل ، بحيث لا يزيد على عشرين طالباً ، وبذلك يصبح الأستاذ صديقاً بل أحياناً للطلاب ، يقدم له التوجيه كلما دعت الحاجة إلى ذلك . أما بالنسبة لاختيار التخصص فإننا الجامعة الوحيدة في العالم العربي التي تمنح الطالب فيها فترة زمنية كافية ، قد تتجاوز السنتين ، قبل أن يقرر مجال التخصص ، لأننا وجدنا أن أفضل من يقرر هذا الأمر هو الطالب نفسه بتوجيه من المختصين في الجامعة . وفيما يتعلق بربط الواقع بالنظريات فقد كانت جامعة البترول والمعادن رائدة في تقديم فكرة التعليم التعاوني في العالم العربي بحيث تتخلل المسيرة الدراسية للطالب في الجامعة فترة تدريب عملية في المؤسسات الصناعية سواء داخل المملكة أو خارجها تحت إشراف الجامعة . وقد أثبت هذا البرنامج نجاحاً كبيراً ، وعمم الآن على مختلف التخصصات . فقد لمسنا اقبالاً كبيراً عليه من قبل الشركات والمؤسسات لدرجة بات معها تعذر تلبية طلبات الشركات خارج المملكة . ولاحظنا أن الطالب بعد انقضاء فترة البرنامج يعود وهو أكثر نضجاً وتقديراً للمادة النظرية التي يدرسها ، وأكثر تفاعلاً مع محيطه ، وأكثر استعداداً للمشاركة في مسيرة التنمية والبناء .

■ تستقبل جامعتكم كل عام أفواجا جديدة من طلبة المدارس الثانوية ، فهل تواجهها مصاعب من نوع معين ؟ وهل هناك نوع من التنسيق بين مؤسسات التدريس الجامعي والمدارس الثانوية في المملكة يهدف إلى تسهيل عملية انتقال الطالب من مرحلة الدراسة الثانوية إلى مرحلة الدراسة الجامعية ؟

لاشك أن هناك صعوبة في انتقال الطالب من مرحلة التعليم الثانوي إلى مرحلة التعليم الجامعي ، وتعزى هذه الصعوبة إلى

من كوادرو مؤهلة لتصنيع وخاصة في صناعة البترول والمعادن . وإذا ما أردنا النجاح في هذا المجال فيجب أن يكون مستوى خريجي جامعة البترول والمعادن مستوى عالميا . وللاوصول إلى هذا المستوى فعليا تحقيق معايير ومستويات أداء مطلوبة لا يمكن التساهل فيها . فالطالب الذي لا يستطيع أن يصل إلى هذه المستويات يمكنه البحث عن مستويات تتلاءم وإمكاناته وقدراته العقلية . ومن هنا أقول أن حل ظاهرة التسرب على حساب المستوى التعليمي الجامعي أمر لا نقبله . كما يمكن اعتبار هذه الظاهرة طبيعية وليست وضعا تنتقد عليه أية جامعة . فنسبة التسرب من الجامعات الممتازة في العالم أعلى بكثير مما هو موجود عندنا ، مرد ذلك إلى إصرارها على المحافظة على مستواها العلمي . وإسهاما منا في التخفيف من هذه الظاهرة فقد أوجدنا السنة الإعدادية في الجامعة لسد الفجوة بين مستوى الدراسة الثانوية ومستوى الدراسة الجامعية من ناحية ، وتعويد الطلاب على العمل الجاد من ناحية أخرى . كما لدينا جهاز خاص للإرشاد الأكاديمي مهمته توجيه الطالب ومتابعة ورصد خطواته لتجنبه الفشل بقدر الإمكان .



■ بحكم منصبك كأحد رجال التربية والتعليم . هل ترى أن المناهج الدراسية في مختلف مراحل التعليم في المملكة تخدم خطط التنمية المنشودة ، وهل نؤهلنا للحاق بركب التقدم ، والتقنية المعاصرة ؟

دعني أضرب لك مثلا بسيطا لتوضيح الصورة كما أراها في المملكة . يمكن تشبيه المملكة قبل سنوات قليلة بالبيت الخالي من الأثاث من ناحية التعليم والتصنيع ، فأية قطعة أثاث تشتريها تجد لها في هذا البيت مكانا دون عناء . أما عندما يكتمل تأثيث البيت يصبح اختيار القطع الجديدة الإضافية أكثر صعوبة . فقبل بضع سنوات كانت هناك حاجة ماسة لأي عدد من الخريجين في أي تخصص من التخصصات . أما اليوم فقد أصبح الأمر مختلفا ، فنحن الآن في المملكة نمر في مرحلة يجب فيها توجيه التعليم العالي على نحو يخدم احتياجات خطط التنمية بصورة أكثر دقة من الماضي ، خاصة وأن أعداد الخريجين أصبحت تزايد

بصورة ضخمة . وقد نواجه مستقبلا مشكلة واجهتها دول أخرى وهي مشكلة وجود أعداد في بعض التخصصات تزيد على الحاجة الفعلية . وأعتقد أن المسؤولين عن التعليم العالي يدركون هذه الحقيقة . وأرجو الله أن يجنبنا الوقوع في الخطأ الذي وقعت فيه الدول الأخرى . أما بالنسبة للحاق بركب التقدم التقني فلدي قناعة كاملة أننا لن نستطيع تحقيق ذلك إلا عن طريق واحد هو البحث العلمي . فالنظريات الاقتصادية التي تعودنا سماعها القائلة بأن التقدم يمكن إحرازه عن طريق وجود رأس المال والأيدي العاملة والموارد والإدارة الجيدة ، هذه النظريات بدأت تفقد أهميتها . إن مفتاح التقدم هو البحث العلمي الجاد الذي يؤدي إلى الابتكارات والاختراعات والحلول الأصلية لمشاكل التنمية . فمقياس التقدم في بلد ما يكمن في إمكانات مراكز البحوث العلمية فيه . ونحن في جامعة البترول والمعادن نقوم بتجربة لم يقم بها أي بلد عربي قبلنا . بالمستوى وحجم الأهداف التي نسعى إلى تحقيقها ، وهي التجربة المتمثلة بمعهد البحوث ، الذي يلاقي من الدعم المادي الشيء الكثير من قبل الدولة ، فنحن نسعى إلى تجميع نحو ٥٠٠ عالم ، يتفرغون إلى البحث العلمي ، بحيث نراوهم على مشاريع تنموية ، ونؤمن لهم أحدث المعدات وتوفير أفضل مناخ إداري ممكن . على أمل الإسهام في حل المشاكل التقنية . فهناك الآن مجموعات من العلماء والباحثين تركز جهودها على مسائل غاية في الأهمية في المملكة ، كمصادر المياه ، وبدائل الطاقة ، واستخدام بعض المواد المتوفرة كالكبريت والرمال في أعمال البناء ، وإيجاد الحلول لظاهرة التآكل الذي يستنزف أموالا ضخمة من اقتصادنا ، وغير ذلك من أمور حيوية . ومع تفاؤلنا الكبير بتحقيق الأهداف المرجوة ، فهناك سلبيات قد تحول بيننا وبين الوصول إلى ما نهدف إليه . ولعل أشد ما نخشاه هو أن يتحول هذا المعهد الحلم إلى مكان للمناقشات النظرية والفكرية ، التي تنتج أوراقا لبحوث تشر في المجالات العالية ، أو تنتج أفكارا براقا لا تؤدي إلى حلول ملموسة تسهم في تنمية البلاد اقتصاديا وتقنيا .

■ كثير الحديث مؤخرا عن قضية التعريب في الوطن العربي . فما رأيك في إحلال اللغة العربية مكان اللغة الأجنبية في تدريس المواد العلمية في الجامعات العربية ؟

قبل أن أبدي رأيي حول هذا الموضوع أود أن أشير إلى أنه كان في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية في الأندلس . كان هناك تقدم علمي وعلماء يكتبون وينشرون باللغة العربية . وكان الطلاب الأوروبيون وخاصة من روما وشمال أسبانيا وبعض المقاطعات الفرنسية يؤمنون المراكز العلمية العربية للدراسة باللغة العربية . ولدي في مكتبي مصدر يتضمن رأي أحد كبار رجال الكنيسة في ذلك العصر يقول فيه : « ان طلابنا يذهبون للدراسة العلوم الحديثة في بلاد الأندلس المسلمة ، ثم يعودون ليقولوا أنه لا يمكن كتابة

■ نعرف أنك في فترة من حياتك العملية قد عملت كمهندس بترول ، ثم أصبحت فيما بعد مديراً لجامعة البترول والمعادن ، فكيف ترى أنه يمكن التوفيق بين الإدارة والممارسة الفعلية لحل التخصص ومدى نجاح مثل هذا الشخص في العملية الانتاجية ؟

بالنسبة لي فأنا إداري وتخصصي إدارة الأعمال في دراساتي العليا رغم أن شهادتي الأولى كانت في هندسة البترول ، وبدأت حياتي العملية في هذا المجال . وأعتقد أنني كنت أول مهندس بترول سعودي يلتحق بأرامكو . أما بالنسبة للإدارة فلا أعدو الحقيقة إذا قلت إن المراكز الإدارية هي أكثر المراكز حساسية وأهمية في أي تنظيم ، وكلما ارتفع المركز زادت أهميته ، لأن الإداري هو الذي يقود ويخطط وينظم عملية الانتاج ويشرف عليها ويصحح مسارها . ولابد أن تتوفر في الإداري مزايا معينة حتى يكون ناجحاً . فهو ليس ذلك الشخص البليغ ، الذرب اللسان ، الذي يعرف كيف يعلق على ما يصل إلى يده من أوراق ، ويشارك في اجتماعات



لا نهاية لها . ذلك المفهوم السائد عن الإداري في العالم العربي . ان العمل الإداري هو عمل مهني بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، وليس عملاً دعائياً أو عملاً ذا مردود اجتماعي أو عملاً مظهرياً . فالإداري الناجح يكتسب المؤهلات المطلوبة للنجاح من التعليم العام أو التعليم التقني أو من تجارب الحياة العملية بالإضافة إلى مكونات شخصيته الموروثة والمكتسبة . فلا ضير أن يكون مدير مؤسسة صناعية ما شخصاً متخرجاً من كلية اللغة العربية أو كلية الشريعة شريطة ألا يصل إلى المركز الإداري إلا بعد أن يكون قد مر بمراحل يشب فيها جذارته وفهمه للعملية الإدارية والعملية الانتاجية لمؤسسته . فعلى سبيل المثال لا الحصر ، أنا لا أتصور أن يكون هناك مدير لجامعة لم يتذوق طعم التدريس ، ولم يختبر مشاكل الطلاب ، ولم يشارك في عملية تطوير المناهج ، ولم يقدم بحثاً علمياً . وهذا مبدأ ينسحب على جميع المؤسسات الانتاجية الأخرى . كما لا أتصور مديراً ناجحاً لشركة تنتج آلات تكييف مثلاً دون أن يعرف ماهية هذا العمل ، وشعور العاملين في الشركة

العلوم الحديثة إلا باللغة العربية . . وعلق القسيس على ذلك بقوله : « ان هذا الرأي خطير يجب محاربته ، علينا أن نحاول جاهدين الاقتباس والترجمة ثم التعليم بلغتنا » . وعليه ، فإن من يقول ان اللغة العربية عاجزة عن استيعاب التقنية الحديثة رغم اتساعها هو قول مرفوض من أساسه . فإذا كان هناك علة تحول دون ذلك ، فأقول أن العلة فينا نحن العرب ، أو كما قيل « نعيب زماننا والعيب فينا » ، نحن متأخرون مادياً رغم تقدمنا في الناحية الدينية والناحية الاجتماعية ، أما في الناحية التقنية فنحن متأخرون ، حتى عن الدول نصف المتقدمة ، وعليئنا مواجهة هذه الحقيقة المرة .

ان مصادر التقنية في العالم تكتب وتؤلف بلغات غير العربية ، تماماً كما كانت اللغة العربية بالنسبة لأوروبا في العصور الوسطى ، حينما كانت العلوم العربية الإسلامية في أوج ازدهارها . وفي رأبي أنه إذا توخينا الإسراع في استخدام اللغة العربية ، فالتركيز يجب ألا يقتصر على الترجمة كما يقول البعض ويتردد هذه الأيام ، بل يجب التركيز على اعداد الأساتذة والعلماء أولاً ، وإنشاء مناخ صناعي وتقني في البلاد ثانياً ، لا على مجرد محاولة ايجاد ألفاظ عربية لمصطلحات علمية وتقنية قد يساء في كثير من الأحيان تفسيرها أو فهمها .

■ كيف تتصور أوضاع الجامعة عام ٢٠٠٠ م من واقع تقديرائك الشخصية ؟

ان كل مسؤول عن مؤسسة مهما صغرت يجب أن يكون لديه رؤية أو تصور يتخطى عشر سنوات على أقل تقدير ، عما يجب أن تكون عليه المؤسسة أو ما تهدف إليه . وأنا شخصياً منذ توليت عملي في الجامعة أتطلع إلى الصورة المشرقة التي يجب أن تكون عليها هذه الجامعة ، بفضل ما تغدقه الدولة عليها من دعم متواصل واهتمام أصيل . وأعتقد أننا بفضل الله قد أنجزنا جانباً كبيراً من الرؤية المرسومة وهي انشاء مؤسسة تعليمية من الطراز الأول لتخريج مئات من الشبان في حقول تقنية حديثة لتسد فراغاً كبيراً في المملكة وخارجها . فنحن اليوم نرى أن ركائز النهضة الصناعية في المملكة تعتمد إلى حد كبير على الخريجين . أما ما نطمح إليه فهو كيفية الانتقال بالجامعة من مؤسسة تدريجية إلى مركز اشعاع علمي يتصف بالعالية وينتج التقنية التي تتلاءم ومتطلباتنا وظروفنا . واستطيع القول أننا قد وضعنا أقدامنا على أول الطريق ، ولعل معهد البحوث الذي باشر نشاطاته هذا العام يحقق الهدف منه ويسهم اسهاماً ايجابياً في تحسين مرافق الانتاج الصناعية وغيرها . واني أتصور الجامعة عقب الانتهاء من المدينة الجامعية ، والمرافق الأكاديمية ومشروع اسكان الطلاب الجديد وقد غدت في عداد الجامعات العالمية التي يشار إليها بالبنان .



ومشاكلهم ، وما يطرأ على هذه الصناعة من جديد ، وما يتم من بحوث علمية ذات صلة بهذه الصناعة وهلم جرا ، فالإدارة تكليف لا تشريف . أما أخطر ما في العملية الإدارية فهو ما يسمى بـ « الشيزوفرينيا » الإدارية ، أي تسليم الإدارة لشخص غير مؤهل يقتصر دوره على الناحية الإعلامية وبيع المنتجات ، بينما الإدارة الحقيقية في يد أشخاص آخرين . ان مثل هذا الوضع يقلل من فعالية العملية الإدارية .

■ نعرف أن جامعتكم تخرج أعدادا كبيرة من المهندسين في تخصصات مختلفة ، فهل لك أن تحدثنا عن صلة الجامعة بخريجها ، وكيفية توثيق الروابط بينها وبين الخريجين .

أعتقد أن جامعة البترول والمعادن هي أول جامعة عربية تنشئ مكتبا للخريجين ، مهمته متابعة تطور الخريج في العمل الموكول إليه ، ومساعدته بشتى الوسائل للتقدم عن طريق تزويده بأية معلومات ينشدها ، واحاطته بكل ما يتم في رحاب الجامعة أولا بأول ، ودعوته لزيارة الجامعة من وقت إلى آخر وفي المناسبات العامة ، وتنظيم حلقات دراسية للخريجين . أضف إلى ذلك أن المكتب يعمل على ابقاء الصلات بين الخريجين وأساتذتهم وزملائهم حية ، وذلك عبر مجلة الخريجين التي تنشر أخبار الجامعة والخريجين وكل ما له صلة بنشاطات الجامعة .

■ حقق تعليم الفتاة السعودية تقدما كبيرا في الآونة الأخيرة تعكسه الإحصاءات وخطط التنمية ، فهل هناك نية لتسهيل التحاق الطالبة السعودية بجامعة البترول والمعادن لإتاحة الفرصة لها لخوض ميادين الهندسة والتكنولوجيا ؟

لما لاشك فيه أن الدولة تراعي عوامل كثيرة وهي تتجاوز مرحلة تنموية واسعة النطاق ، من بينها محاولة تلبية متطلبات خطط التنمية من الموارد البشرية المؤهلة في حدود أحكام شريعتنا السمحة ،

وأنا شخصيا لا أعتقد أن هناك ما يمنع الطالبة من الالتحاق في المجالات الهندسية والتقنية . وهناك الكثير من الأدوار الهندسية والتقنية التي تتطلب العقل أكثر مما تتطلب العضلات ، وبإمكان الفتاة القيام بهذه الأدوار ، شريطة ألا يتعارض ذلك مع تعاليم ديننا وتقاليدنا الطيبة . فقد تكون هناك مهندسة معمارية من الطراز الأول ، تستطيع أن تقضي وقتا طويلا أمام مرسمها ، لابتكار أشكال وتصاميم هندسية رائعة لمؤسسات ومبان ، وما شابه ذلك ، دون الاختلاط بالرجال وعلى نحو لا يتنافى مع الشريعة الإسلامية السمحة ، أما الآن فليس لدينا خطة لقبول الطالبات في جامعة البترول والمعادن ، وقد يتم هذا مستقبلا .

■ لاشك أن لجامعة البترول والمعادن صلات بمؤسسات علمية وتقنية وجامعات علمية مماثلة ، بودنا لو تحدثنا عن طبيعة هذه الصلات ومدى الاستفادة منها .

للجامعة صلات علمية واسعة مع جامعات ومراكز بحوث عالمية في أمريكا وأوروبا واليابان والبرازيل وكوريا وغيرها . وما يؤسف له أن صلاتنا في بادئ الأمر مرت بتجربة لم تكن مجدية ، حيث أن العديد من هذه الجامعات ومراكز البحوث كانت تنظر إلى المملكة وإلى المؤسسات العلمية فيها نظرة تجارية ، هادفة من وراء إقامة صلات معها إلى الحصول إما على تبرعات أو بيع خدمات لها . ان مثل هذه الصلات التجارية البحتة لم تعد تخدم أهدافنا . أما اليوم فإن الصلات التي نطمح إلى اقامتها مع هذه المؤسسات العلمية والتقنية فستبنى على المنفعة المتبادلة . وطبيعي أننا لا نستطيع إقامة مثل هذه الصلات إلا بعد أن نصل إلى مرحلة العطاء العلمي والتقني . ويمكن القول أننا بدأنا نسير على الطريق السوي من هذه الناحية ، ودليل ذلك أن عددا من المؤسسات العلمية في أنحاء العالم أخذ يسعى إلى إقامة صلات مع جامعة البترول والمعادن على أساس علمي وتقني وبدون أي عائد اقتصادي عليها ، بل ان هناك مؤسسات علمية تربطنا بها صلات علمية متبادلة تتكبد بسببها تكاليف تفوق ما تتكبده جامعتنا . فعلى سبيل المثال لا الحصر ، أوفد حاكم « سان باولو » مستشاره العلمي منذ فترة وجيزة لإقامة تعاون علمي بين جامعة البترول والمعادن وجميع مراكز البحوث والجامعات في ولاية « سان باولو » بالبرازيل ، مبني على أساس التبادل العلمي والتقني الذي يستفيد منه الجانبان ، على أن يتحمل كل جانب ما يترتب عليه من تكاليف . ولدينا حاليا صلات من هذا النوع مع جامعات أمريكية عديدة ومراكز بحوث كـ « مركز « باتيل » في ولاية أوهايو و « مركز البحوث في ستانفورد Stanford Research Institute » ، ومعهد البترول الفرنسي ، وجمعية العلماء اليابانيين ، ومعاهد البحوث العلمية في كوريا ، هذا فضلا عن صلات تعاقدية مع بعض الجامعات في الولايات المتحدة الأمريكية ، وفرنسا ، وألمانيا ، والنمسا .



■ حدثنا عن نشاطك الفكري وإسهامك في الحركة الفكرية .

اعتبر نفسي مقصرا من ناحية التأليف . وقد سبق لي أن نشرت مقالات وبحوثا علمية في مجالات عربية وأجنبية منها مجلة « قافلة الزيت » عن تصوري للتقنية في الوقت الحاضر . ولدي الآن كتابان تحت الطبع ، أحدهما يتعلق بمدارس الفكر الإداري وامكانية تبنيها في البيئات المختلفة ، والآخر حول علاقة المدارس العلمية الإدارية بعملية التنمية الاقتصادية . أما بالنسبة إلى مطالعاتي فقد بدأت في السنوات الخمس الأخيرة أرفض كثيرا من الفكر الاجتماعي والفلسفي الغربي والشرقي ، وتوجهت توجها شبه تام إلى الاهتمام بالتراث الإسلامي والعربي والعلمي .. ووجدت أن هذا التراث غني ومتقدم جداً على العصر الذي نعيش فيه . ومن حسن الحظ أن معظم هذا التراث محفوظ ومنشور ، وبإستطاعة كل فرد أن يصل إليه . وأعتقد أنه من الواجب على كل مثقف عربي أن يعود إلى هذا التراث فيقرأ مثلاً « مقدمة ابن خلدون » ليكتشف أن ابن خلدون قد وضع أسس علم الاجتماع وأسس المدرسة الحديثة لتناول علم التاريخ ولتقرأ تراث الأديسي في الجغرافية . فالخرائط التي رسمها تبين أن العرب المسلمين في العصور الوسطى قد عرفوا العالم وحدوده ورسموا خرائط جغرافية له . ان توجهي إلى التراث الإسلامي الرفيع لا يمنعني من متابعة الحركة الفكرية في عالمنا العربي . فأنا أقرأ للشاعر الفحل المعاصر محمد حسن فتحي ذي العطاء الوافر والأسلوب الجزيل لولا رنة الحزن التي تشوب بعض شعره . كما أنني حالياً أقرأ كتاباً باللغة الانكليزية لادوارد سعيد وعنوانه « المستشرقون - The Orientalists » وكتاباً عنوانه « اتجاهات الإدارة الحديثة » . هذا بالإضافة إلى أنني أقرأ المؤلفات التي يؤلفها زملائي في الجامعة .. وحالياً أعيد قراءة كتاب « الأمم في الفقه الشافعي » وكتاب « البحر الرائق في الفقه الحنفي » وهما مثل على أن التشريع الإسلامي متسع جداً ، وأن الأحكام التي أنزلها الله في القرآن وأرشدنا إليها الرسول الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، في المعاملات وشئون الحياة قابلة للتطور باستمرار وقابلة للتفسير الملائم لمختلف الحالات والعصور .

■ ان تنمية طاقات الطالب العقلية والاجتماعية ليصبح عضواً فاعلاً في المجتمع لابد وأن تحظى بالاهتمام الوافر من لدن الهيئة الإدارية والتدريسية في الجامعة . فما الذي تهيئه إدارة الجامعة للطالب فيما يتعلق بتوفير مناخ جامعي متكامل يساعده على التحصيل العلمي في جو مريح وبصورة طبيعية مرضية ؟

قمنا في الجامعة بتطبيق فكرة اليوم التعليمي الكامل ، وبهذا تكون جامعة البرول والمعادن رائدة في هذا الميدان في العالم العربي . وتقوم هذه الفكرة على مبدأ تربوي أساسي قوامه أن عملية التعميم لا تتم في المعامل والنصول فحسب . وإنما تمتد إلى جميع أشكال الاتصال الانساني والمعيشة اليومية . فالغالبية العظمى من الصلاب الذين يعيشون في الحرم الجامعي يمارسون هوايات وأنشطة مصممة من قبل مختصين في الجامعة ، ويقوم بإدارتها الطلاب بأنفسهم . وهناك نواد علمية وفنية ورياضية كثيرة يلتحق بها الطالب وفقاً لميوله . أضف إلى ذلك اشراك الطلاب في المحاضرات العامة والنشاطات المتنوعة التي تهيء الفرصة للطالب الجاد لتطوير مهاراته وتعلم ما يساعده في حياته .

■ هل ترى أننا كأمة عربية اسلامية لها ماض مجيد . قادرون على اللحاق بركب التقدم العلمي والتقني أسوة بالأمم الصناعية المتقدمة ؟

أولاً أن الأمة العربية الإسلامية ليست متخلفة كما يدعي البعض ، فنحن متقدمون في النواحي العقيدية والروحية والاجتماعية ، وأنا لا أقول هذا من قبيل التبجح ، فهو حقيقة واقعة ملموسة . فهناك مؤشرات كثيرة تؤيد ذلك ، وعلى سبيل المثال يمكن النظر في بعض المؤشرات الاجتماعية مثل نسبة الطلاق ، والجريمة ، والانتحار ، وما إلى ذلك في المجتمعات الغربية والشرقية ، وسترى منها أن هذه النسب أقل بكثير في المجتمعات الإسلامية ، مما يدل على فشل ذريع في مواجهة الحياة في الدول الصناعية . فنحن إذن أكثر تقدماً من هذه المجتمعات إذا ما أخذ العامل الروحي والاجتماعي في الاعتبار . فالمجتمع الإسلامي في إطار الدين الإسلامي هو مجتمع غير متخلف . نحن متخلفون فقط في انتاج البضائع والخدمات وفي انتاج أدوات التقنية الحديثة كالمطائرات والسيارات وما شابه ذلك ، وتخلفنا هذا ليس موروثاً وإنما هو تخلف مؤقت . والانتكاسة الكبرى للأمة العربية الإسلامية حدثت في السنوات الخمسين الماضية . فمراكز الصناعة العالمية حتى قبل اختراع آلة الاحتراق الداخلي كانت في العالم الإسلامي ، في دمشق ، وإستانبول ، والهند ، ومصر ، والأندلس . فأحسن أنواع الصلب في العالم كان ينتج في دمشق حتى ما قبل الانقلاب الصناعي الحديث ، وكان يعرف بالصلب الدمشقي . فالتخلف الذي نعاناه حالياً هو تخلف مؤقت لا يزول إلا بزوال أسبابه .

الفراشات

بقلم: د. عيسى الرضوي / نيويورك



تأثير الربيع أعداد الفراشات من سنة إلى أخرى . وتتخلل هذه السنين فترات متناوبة من الزيادة النسبية والندرة . وتعتمد الفراشات أكثر من معظم الحشرات الأخرى على ضوء الشمس للبقاء على قيد الحياة . وإذا تصادف انتشار طقس سيء مع فترة طيران الفراشات ، وهي فترة قصيرة . تتعرض أعدادها إلى تأثير مريع ربما استغرق تعويضها مدة طويلة .

ومن الأخطار الأخرى التي تتعرض لها الفراشات . الصقيع في أواخر فصل الربيع . فهي تعط في سباتها . إما وهي في مرحلة التبييض ، أو في مرحلة اليرقة الصغيرة . ومادامت مستغرقة في سباتها فهي تستنضع مقاومة البرد إلى درجة معقولة . ولكنها عندما تبدأ في التغذية تصبح أشد عرضة للإصابة بالضرر . ويحدث أحيانا أن أوراق الشجر الصغيرة التي تقتات عليها اليرقة يتلفها الصقيع ، فعندئذ تتعرض الفراشات في موقع معين إلى الإبادة في فصل واحد .

لتقتات على الزهور . ومن ثم تضع عددا آخر قليلا من البيض . ويستغرق وضع البيض في الأنواع القصيرة العمر أياما قليلة . إلا أن الأنواع الأطول عمرا قد يطول وضعها عدة أسابيع ، ويأخذ البيض في النضج تدريجيا . ان وضع البيض على هذا الشكل المتباعد زمانا ومكانا ، يضمن ألا تقتارب اليرقات إذ أن الكثير منها يأكل بعضها بعضا خصوصا في المراحل المبكرة ، فيتجنب احداث وفيات غير ضرورية فيما بينها .

تعيش اليرقات في بداية الأمر في نسيج حريري جماعي يهجر فيما بعد ففتترق الأسر ، ويتجول الأفراد لكي يستطيعوا إطعام أنفسهم بأنفسهم . وهكذا لا تقتات الفراشات بعضها على بعض . ويتوفر الطعام بكثرة في العادة . ذلك أن النباتات المختارة هي من النوع الذي ينمو في مجموعات كبيرة .



ان معظم الفراشات تحتاج إلى حافز الاهتمام إلى النبات الملائم لوضع البيض فيه ، فإذا تعذر ذلك فقد تموت الأنثى قبل أن تضع بيضها . إلا أن أنواعا أخرى منها قد تلقي البيض بطريقة عشوائية لدى طيرانها . وتضع أنواع أخرى بيضها في شقوق جذوع الأشجار أو على أية مادة خشنة لأنها لا تحتاج إلى حافز قوي كأوراق البنفسج وهو النبات العادي الذي تقتات عليه الفراشات .

هناك عوامل كثيرة تؤثر تأثيرا كبيرا على أعداد الفراشات في أمكنة معينة ، ومن هذه العوامل مد شبكات مصارف المياه ، وبناء خزانات المياه . وقطع أشجار الغابات وزراعة مناطق كبيرة من الأشجار الصنوبرية . وحرث أراضي التلال المكسوة بالأعشاب . وتعرض المجموعات الصغيرة منها إلى الإبادة عن طريق التطوير المحلي الناتج عن أعمال البناء أو شق الطرق .

وتقاسي أنواع الفراشات الأكثر حساسية للتغيرات البسيطة الجارية في بيئتها أكثر مما تقاسيه الأنواع الأكثر تأقلا . أما أكبر خطر يهدد بقاء أي نوع من أنواع الفراشات فهو تطابق الفترة الطبيعية التي يقل فيها عدده مع مناخ غير ملائم أو مع تغييرات في البيئة ، مما يجعل من المستحيل على النوع أن يزيد من أعداده مرة أخرى .

تناول يرقة الفراشات أطعمة متباينة محدودة جدا ، فأكثرها لا يقتات إلا على نوع واحد من النبات أو العشب . بينما لا تقتات أنواع أخرى سوى على نوعين أو ثلاثة أنواع من الفصيلة النباتية نفسها . وتقوم الفراشة - مع بعض الاستثناءات القليلة - بوضع بيضها بالفعل على النبات الذي يتلاءم أكثر من غيره لسد حاجات اليرقة . وهي تستطيع اختيار النبات الملائم من بين عدد كبير من النباتات بوساطة الذوق أو الشم على الأرجح . وتدللنا الملاحظة الدقيقة للفراشات التي تفقس على النبات الملائم على أنها تختبر أوراق النبات بطرقها بقدميها الأماميتين . ومن خلال عملية الطرق هذه التي يرجح أنها تستخرج بوساطتها بعض الروائح من سطح الورقة . تستطيع الفراشات أن تحكم فيما إذا كان النبات الذي استقرت عليه ملائما . فإذا كان الأمر كذلك . فإن استجابة الأنثى الملقحة التي نضج بيضها هي الاستقرار لحظة ومن ثم إلصاق بيضة على سطح النبات . وأحيانا فوق ورقة الشجرة أو في أسفلها وأحيانا على ساق زهرة . أو على غصن في أسفل أحد أكمام الزهور .

تضع معظم الفراشات بيضها كل واحدة على حدة متقلة من نبتة إلى أخرى . متوقفة أحيانا

ان جميع يرقات الفراشات التي تقتات بنفسها تخفي شكلها ولونها بحيث لا يمكن أن تكتشفها إلا العين المدربة . أما تلك التي تعيش في أسراب من الناحية الأخرى ، فمن السهل رؤيتها خصوصا عندما تكون صغيرة ، ولكنها تعتمد في حماية نفسها على كونها كريهة الطعم بالنسبة إلى العصفير ، وفي كونها مسلحة بشوك يجعل ابتلاعها أمرا صعبا . إلا أن شكلها الخارجي لا يكون على كل حال دفاعا عنها ضد ألد أعدائها وهو الذباب المتطفل وذبابة الشمس التي تفتك بها عادة .

ورغم الافتقار إلى البينة ، فانه من المحتمل أن الطفيليات من هذا النوع تقوم بدور فعال في إحداث تذبذب في أعداد الفراشات . ويعتقد العلماء المختصون بالحشرات الذين درسوا الموضوع بعناية أن الطفيليات هي المسؤولة عن الانقراض المفاجيء للفراشات في مناطق كانت كثافتها فيها كبيرة . ولدى تكاثر أعداد الفراشات في منطقة محددة فان الظروف بالنسبة للطفيليات تتحسن تدريجيا وتتكاثر بحيث لا ينمو من أعداد الفراشات إلا العدد القليل . وبانقراض الفراشات ينقرض عماد حياتها ، وباختفاء أعدائها تتناقص أعداد الطفيليات في الحال وقد تختفي تماما من المنطقة . ويتيح هذا الوضع الجديد الفرصة للفراشات المتبقية للتكاثر من جديد ، لاسيما إذا ما توفرت الظروف المناسبة ، وهكذا تبدأ الفراشات في التكاثر مرة أخرى بشكل متواصل إلى أن تتكرر العملية مرة أخرى بعد عدة سنوات .

ان التغير التام الذي يحدث لدى تحول اليرقة إلى طورها التالي هو من أسرار الحكمة الإلهية . فقبل التغير الفعلي بيضعة أيام ، تبدأ اليرقة في الاستعداد لهذا الحدث فتتوقف عن الطعام ، ويتقلص حجمها بصورة مرئية ومن ثم تمضي في العادة في الصاق نفسها بأحكام على ورقة أو ساق شجرة وغيرها . وقد يمضي يومان قبل حدوث أي تغيير مرئي وبعد ذلك ينشق جلد اليرقة خلف الرأس وتدرجيا تصبح حشرة وتلقي بجملدها القديم خلفها متخلصة منه نهائيا .

ومن الطريف أنه لدى دراسة بيض الفراشات تحت العدسة المكبرة ، يلاحظ أنها في العادة محفورة السطح بشكل دقيق جداً . ويتخذ الحفر شكل تلال تمتد من أعلاها إلى أسفلها ، وفي منتصف رأس كل بيضة فتحة دقيقة ، وعبر هذه الفتحة يلحق البيض ، كما تسمح للأكسجين بالدخول إلى الجنين المتطور . ومعظم بيض الفراشات شديد الاصفرار لدى وضعه ، والكثير منها يميل إلى الاسمرار بشكل كبير في غضون يومين ، وبذلك فانها تصبح أقل لفتا للأنظار . وقبل التفقيس بوقت قصير يشتد اسمرارها . وتستطاع رؤية اليرقة التي لم تولد بعد من خلال قشرة البيض والنصف الشفافة .



ان الوقت الذي يمضي بين الوضع والتفقيس يختلف كثيرا باختلاف الفصيلة ، وربما يستغرق ذلك أكثر من أسبوع في منتصف الصيف إذا كان الطقس معتدلا ، أو عدة أشهر إذا وضع البيض في آخر الفصل ولا تفقس إلا في الربيع الذي يليه . وتأكل يرقات الفراشات دائما قسما على الأقل من قشور بيضها قبل أن تشرع في الاقنيات على النبات ، وهذا يكفيها لمدة طويلة .

بين الألوان ولها ميل إلى الورود البنفسجية الزاهية والأرجوانية ويحيى بعد ذلك اللون البنفسجي واللون القرنفي ، إلا أنها تميل إلى اغفال اللون الأبيض إذا توفرت ألوان أخرى .

تكون أنثى الفراشات غالبا مهياة للقاح بعد انبثاقها ولكن مما هو مألوف أن تضطر ذكور الفراشات أن تطير بضعة أيام وتتغذى قبل أن تهتم باللقاح . وفي معظم أنواع الفراشات يسبق انبثاق الذكور الإناث ببضعة أيام كما تفيد من سباتها في وقت أبكر . وعندما يطير الجنسان ويكون الطقس موافيا ، تبدأ عملية التودد . أما اللقاح فلا يحدث أثناء الطيران ، ولكن الأزواج تستقر معا على نبات معين غالبا ما يكون مختفيا وراء ورقة شجر أو على الجانب السفلي من أحد الأغصان .

كثيرا ما يشار إلى أن حياة الفراشات مثال على القصر ، ولكن إذا ما اتبحت الظروف المناسبة فحتى أكثر الأنواع رقة وأقصرها عمرا يمكنها أن تعمر عشرة أيام أو أربعة عشر يوما إذا ما توفر لها الطعام والطقس المناسب . وتعمر بعض الأنواع عشرة أشهر وتستمر في الطيران بعد سباتها إلى أن تتمزق أجنتها وتضمحل . وتستطيع بعض فصائلها الطيران مسافات طويلة تتجاز فيها قارة بأكملها .

البرق الألوان البراقة التي تجعل من الفراشات حشرات جذابة تساعد أيضا على العثور والتعرف إلى بعضها البعض . وفي الغالب تكون الألوان في الجانب السفلي أقل بريقا ، ويستطيع معظمها الاختفاء عند الاستقرار وضم أجنتها . ولدى طيرانها تصبح فريسة سهلة للطيور ولكنها عندما تستقر تكون في مأمن معقول من الهجوم . ان هدف البقع الشبيهة بالعيون التي غالبا ما تزين أجنتها هو صرف انتباه الأعداء عن الأجزاء الأخرى الحيوية في الجسم . فلدى انقضاء طائر على فراشة يضرب هذه الأعين الكاذبة ، ويكون نتيجة ذلك تمزيق قطعة من جناح الفراشة غير الحساس ، مما يضطرها في معظم الأحيان إلى الهرب والبقاء حية لتتوالد وتتكاثر □

وعندما تستطيع الفراشة الطيران يصبح الطعام أول مطلب لها . ونظرا لكون ألسنتها أنبوبية الشكل فإنها لا تستطيع أن تقتات إلا على السوائل ، ويكون رحيق الزهور طعامها الرئيسي . وتشرب الماء وتمتص السوائل من الفواكه العفنة والسائل الذي تنضح به الأشجار ، وتقتات بعض الأنواع على الجيف . وتعثر الفراشات على الزهور التي تقتات عليها بالنظر ، وربما ساعدها أحيانا في ذلك الشم كما يحدث عند حطها على بعض الأشجار التي يفوح منها الرحيق . ومن الواضح أنها تستطيع التمييز



طب الأطفال عند ابن القيم

بفتح: الدكتور محمود الحجّاقم محمد / الوصل

يقره في أغلب ما ذكره والجزء الذي لا يقره عليه لا يشكل مأخذاً عليه حيث أن العلم الطبي كغيره من العلوم التجريبية ، دائم التغير والتطور ، فما نحكم عليه اليوم بأنه صحيح قد تثبت التجارب خطأه غداً ، وبعض ما درسناه وكأنه الحقيقة بالأمس في كليات الطب أن تفوه به طالب الطب اليوم فإن الفشل يكون مصيره لا محالة . وإذا ما تذكرنا بأن ابن القيم كتب آراءه هذه قبل ستمائة وثلاثين عاماً . أدركنا قيمة تلك الآراء ومكانة صاحبها . وإليك عزيزي القارئ أبرز ما ذكره مما له علاقة بالطفل ، تكونه ، نشأته ، وتربيته .

في الطب ودراسته لدقائق هذا العلم مما جعله صاحب ذخيرة وفيرة وملكة عالية في حقل طب الأطفال .

آراؤه في طب الأطفال

سرد ابن القيم آراءه في طب الأطفال في كتابه « تحفة المودود بأحكام المولود » . حيث قسم كتابه هذا إلى سبعة عشر باباً ، ففي الأبواب الخمسة عشر الأولى بحث الناحية الشرعية في أحكام المولود . ومن بين الموضوعات التي تناوضا ، استحباب طلب الأولاد . وكراهة تسخط ما وهب الله من البنات . استحباب بشارة من ولد له ولد . استحباب الآذان والإقامة في أذنيه . في العقيقة وأحكامها . في حلق رأسه . في ذكر تسميته ووقتها . في ختان المولود وأحكامه . في استحباب تقبيل الأطفال . في وجوب تأديب الأولاد وتعليمهم والعدل بينهم . أما في الباب السابع عشر ، فقد تناول ابن القيم خلاصة لآراء الأطباء في بعض ما يتعلق بطب الأطفال حتى زمانه إضافة لآرائه وما توصل إليه بثاقب بصيرته وفطنته وتجربته في هذا الحقل . والطب الحديث

يكن ابن القيم طبيباً « متفرغاً » وممارساً للطب . وعلى الرغم من ذلك فإننا نجد له أبحاثاً قيمة في الطب . كوصف أجزاء جسم الإنسان . وإفادته في وصف التنفس والجهاز الهضمي والاسنان . وبذلك كان أول من أشار إلى وظائف الغدد الصماء . كما تناول الكثير من أحوال النفس وسبق الكثير من المحدثين أمثال « فرويد » في نظريات تحليل العواطف بما يتفق مع الأخلاق والإيمان العميق بالله . وله آراء قيمة في الطب الوقائي والصحة العامة وضرورة تفتت مريض بالطبيب وكثير غير ذلك .

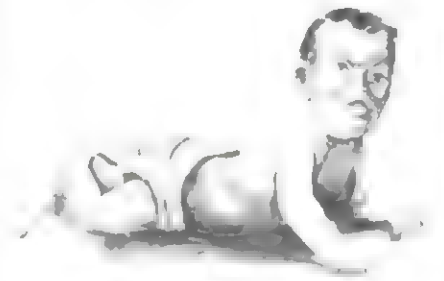
وفد جمع ودرس الأحاديث النبوية الشريفة التي وردت في الطب وهو ما يسمى بـ « الطب النبوي » وفي تدوينه ذلك تأثر بكتابي الحموي والذهبي . وأضاف ما جادت به عبقرية من الآراء والاستنباطات القيمة .

ويروى عن كثير من الأطباء من أمثال « أبقرط » و « جالينوس » و « ابن ماسويه » و « ابن بختيشوع » و « الرازي » و « ابن سينا » وغيرهم . الأمر الذي يدل على سعة اطلاعه على كتب الأوائل



تكون وتطور الجنين

يتحدث ابن القيم عن مقدار زمان الحمل واختلاف الأجنة في ذلك ، وفي سبب الشبه للأبوين أو أحدهما ، كما يتحدث عن المولودين لسبعة وثمانية وتسعة أشهر وهو في كل ذلك يدعم آراءه بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية . ولاشك في أن الحق كان معه في بعض ما ذكر ولم يكن مصيبا في بعض المواضع الأخرى قياسا لما نعرفه اليوم في علم الأجنة الحديث .



بكاء الطفل والعناية به من الناحية النفسية

بعد أن أكد ابن القيم بأن بكاء الطفل ساعة ولادته يدل على صحته وقوته وشدته ، يقول : « وإذا وضع الطفل يده وإبهامه وأصبعه على عضو من أعضائه فهو دليل على ألم في ذلك العضو » . وهذا ما نطبقه اليوم نحن أطباء الأطفال ، فأننا كثيرا ما نسأل الأمهات عند فحص الطفل ما إذا كانت تشاهده يمد يده كثيرا إلى أذنه ، فإن كان الجواب نعم كان ذلك عونا لنا في تشخيص التهاب الأذن الوسطى .

تغذية الطفل وفطامه

تناول ابن القيم هنا أوقات الرضاعة ونوعية الغذاء وكيفية تعويد الطفل على الطعام وكيفية فطامه . ومما قاله بهذا الصدد : « ينبغي أن يكون رضاع المولود من غير أمه بعد وضعه يومين أو ثلاثة وهو الأجود . لما في لبنها ذلك الوقت من الغلظ والاخلاط بخلاف لبن من استقلت على الرضاع » . نحن لا نتفق مع ابن القيم فيما ذهب إليه حيث أن حليب الأم في هذه الفترة



لا يخلو من فائدة غذائية للطفل لاحتوائه على بعض عناصر المناعة ضد الأمراض ، إلا أن هناك من يؤيده فيما ذهب إليه حماية للطفل من اليرقان الولادي وذلك لاحتواء حليب الأم في الأيام الأولى على كميات مكثفة من الهرمونات الأنثوية التي قد تكون سببا في ازدياد انحلال كريات الدم الحمراء وترسب البيليروبين في الأنسجة وازدياد اليرقان الفسلجي الذي يتعرض له بعض الأطفال . ثم يقول : « وينبغي أن يقتصر بهم على اللبن وحده إلى نبات أسنانهم .. فإذا نبتت أسنانه قويت معدته وتغذى بالطعام .. وينبغي تدريجهم في الغذاء ، فأول ما يطعمونهم

ثم نجد ابن القيم يهدى من روع الأبوين إذا بكى طفلهما بقوله : « ولا ينبغي أن يشق على الأبوين بكاء الطفل وصراخه . ولا سيما لشربه اللبن إذا جاع . فانه ينتفع بذلك البكاء انتفاعا عظيما . وبذلك يروض أعضائه ... ويفسح صدره ويسخن دماغه ... » وهذا صحيح علميا حيث أننا إذا ما نفينا العامل المرضي بالفحص الطبي سوف لن يكون هناك داع للقلق من بكاء الطفل ، إذ أنه بفعل الشهيق والزفير العميقين وبتأثير الضغط والاحتقان المرافق لعملية البكاء يتسع القفص الصدري وتتوسع الحويصلات الرئوية وتنشط الدورة الدموية ويزداد التبادل الغازي في الرئتين وبذلك يكون البكاء ذا مردود نافع له . وفي الوقت نفسه يحذر ابن القيم من تعريض الطفل لما يزعجه من الأصوات الشديدة والمناظر المريعة والحركات المزعجة فيقول : « وينبغي أن يوفى الطفل كل أمر يفزع من الأصوات الشديدة الشنيعة والمناظر المريعة والحركات المزعجة ، فإن ذلك ربما أدى إلى فساد قوته العاقلة لضعفها فلا ينتفع بها بعد كبره » . وهذا الرأي يؤيده فيه علماء التربية وعلم النفس حيث أنه كثيرا ما تفسر مشاكل نفسية لدى الكبار بما يتعرضون له في مرحلة الطفولة من مشاكل سجلها عقلهم الباطن وانعكست بسوء على حياتهم كلها . كما ويحذر أيضاً من منع الطفل من القيام ببعض المتطلبات الضرورية له حفظا على نمو قدراته النفسية بانتظام وتجنبيا له من الكبت فيقول : « وأحذر كل الحذر أن تحبس عنه ما يحتاج إليه من نوم أو طعام أو شراب أو عطاس أو بول .. فإن لحبس ذلك عواقب رديئة في حق الطفل الكبير » .



من تناول ما يزيل عقله من مسكر وغيره ... » .

لقد نادى ابن القيم بمبدأ التخصص بعد الدراسة الثقافية الروحية في بدء حياة الطفل وهو ما ينصح به علماء التربية اليوم عند اختيار الدراسة المهنية للشباب ، فيجب أن نفكر فيما يناسب طبع المتعلم وما يلائمه وما يميل إليه كي ينبغ في دراسته ، ولنضع كل شاب في المكان المناسب له . يقول في ذلك : « وما ينبغي أن يعتمد حال الصبي وما هو مستعد له من الأعمال ومهياً له منها .. فإن رآه حسن الفهم صحيح الإدراك جيد الحفظ واعياً ، فهذه من علامات قبوله وتهينه للعلم .. وإن رآه بخلاف ذلك من كل وجه وهو مستعد للفروسية وأسبابها من الركوب والرمي واللعب بالرمح .. منه من أسباب الفروسية والتمرن عليها .. وإن رآه بخلاف ذلك .. ورأى عينه مفتوحة إلى صنعة من الصنائع .. وهي صناعة مباحة نافعة فليمكنه منها .. » □

سن معينة بل من الناس من يميز الخمس » .

أما عن مشي الطفل فيقول هذا القول العلمي الصائب : « وما ينبغي أن يحذر أن يحمل الطفل على المشي قبل وقته لما يعرض في أرجلهم بسبب ذلك من الانتقال والاعوجاج لسبب ضعفها وقبورها لذلك » . ان هذه الحقيقة أثبتتها الأبحاث التربوية الحديثة حيث أكدت وجود ارتباط وثيق بين قيام الطفل بحركات الجبو والقيام والمشي وبين نمو جهازه العصبي ، فعند تكامل الأخير يستطيع الطفل تقليد من حوله سريعاً « إن لم يكن مصاباً بمرض يمنع ذلك كالكساح أو الشلل مثلاً » . ولو لم يكن قد سبق له أن جاب أو انتصب هذا إضافة لما قد يصيبه فيما إذا أرغم على الوقوف والتحرك قبل أن يكون جسمه قد استعد لذلك .

تربية الطفل الخلقية والمهنية

ان ابن القيم شأنه شأن الفقهاء والفلاسفة العرب والمسلمين قاطبة اشترط تعويد الطفل أحسن العادات وأكرم الأخلاق وأجمل النظم ، وأكد على القدوة الحسنة من المربي وحسن اختيار جماعة الأصدقاء . فمن وصاياه في هذا الصدد : « وما يحتاج إليه الطفل غاية الاحتياج الاعتناء بأمر خلقه فانه ينشأ على ما عوده المربي من صغره .. وكذلك يجب أن يجتنب الصبي إذا عقل مجالس اللهو والغناء وسماع الفحش والبدع ومنطق السوء فانه إذا علق بسمعه عسر عليه مفارقتها في الكبر .. وينبغي لوليه أن يجنبه الأخذ من غيره .. ويعوده البذل والاعطاء .. ويجنبه الكسل والبطالة والدعة والراحة .. والحذر كل الحذر من تمكينه

اللبن ، فيطعمهمونهم الخبز المنقوع في الماء الحار ، واللبن الحليب ثم بعد ذلك الطبخ ، والأوراق الخالية من اللحم ، ثم بعد ذلك ما لطف جداً من اللحم » . وهذا لاشك قول حسن حيث أن التدرج في تعليم الطفل على الأغذية هو ما نوصي به طيباً اليوم ولم نصف إلى ذلك سوى تحديد موعد اعطاء كل نوع من الغذاء . وقوله في فطام الطفل قول علمي وصحيح ، فهو يؤكد على ضرورة فطام الطفل بالتدرج وليس دفعة واحدة وبهذا يقول : « وينبغي للمرضع إذا



أرادت فطامه أن تفضمه على التدرج ولا تفاجئه بالفطام وهلة واحدة . بل تعوده آياه وتمرنه عليه لمضرة الانتقال عن الألف والعادة مرة واحدة » .

تطور حواس الطفل ومشيه

لم يغفل ابن القيم عن ذكر تطور ونمو حواس الطفل ونشاطه العقلي بل حاول بثاقب بصيرته تتبع ذلك فقال : « فيضحك عند الأربعين . وذلك أول ما يعقل نفسه ، فإذا أتم له شهران رأى المنامات ثم ينشأ معه التمييز والعقل على التدرج شيئاً فشيئاً إلى سن التمييز وليس له

السجدة الحبس الركة

سعر: ماجد (البحر) العامري / الدرنه المنورة

ولفح الحجر أم همس الغصون ؟
تظل الشمس .. تشرب من عيوني
ويغمر ظله .. سجف الجفون . !
وتزخر بالفنون .. وبالفتون !
فيكذب بالشقاء .. وبالشجون
إذا لم يأت من تعب اليمين
عدلت إلى الخفيف .. عن الرنين
أمهر .. في السهول - وفي الحزون
ويحمي الوجه .. من ضحك السنين
وأسقي نبتة .. عروق الجبين !
ولا أمتار .. من غرس الضنين

أيل الشك أم صبح اليقين ؟
ويبداء تمخض .. عن هجير
أم الروض الأريض .. يفيض حناً
وجنات يحار الطرف فيها
يقيّل المرء .. فيها بعض وقت
بعيدا عن .. رنين المال .. يطغي
أصيخوا لي .. فان الرأي رأسي
وأضيت الحياة .. بقرب حقل
وأغرسه بما ينمي ويغني
أودع تربسه .. جبات قلبي
وأقطف ما غرست بفضل جهدي

...

يصد الريح .. يبعث بالدجون
ويغلو الأهل .. كالغنى اللبون
وأحفظه .. كما الحرز الثمين
وجادات .. بالعطاء المستين
ونكرمها .. كأكرام .. البنين
وقربى .. لا تغلف بالظنون
تمد حبالها .. للقاطفين
وتزخر .. بالمحبة .. والحنين
فتجهش .. بالنحس .. والأنين
ووقت .. للعطاء .. بلا ركون
ونسمع أهلها .. أحلى اللحون !!

أسوره .. بسور من نخيل
يمد البيت .. ماعونا وفرشا
أراعي شأنه وأذب عنه
فان كرائمنا بسقت ونافت
حري .. ان نوفيها حقوقا
لها في كوننا شأن عظيم
تكاد .. إذا يحين القطف منها
تحس كما يحس .. بنو أخيها
ويؤلمها .. عقوق الرحم منا
أصيخوا لي .. فان اليوم جهد
فهيأ ... نملأ الدنيا ربيعاً





عسير

درة الجزيرة العربية وموطن الطبيعة الخلابة

بمنارة التراث والحضارة والمناظر الخلابة



لما اعتدنا عقارب الساعة عشرين عاماً إلى الوراء ونظرنا إلى ما
كانت عليه عسير في ذلك الوقت لعرفنا مقدار ما كان يواجه أبناء هذه
المنطقة من ظروف صعبة قاسية في شتى المجالات - ويعود ذلك إلى صعوبة
الأرض - وعدم وجود مواصلات منتظمة ورافق حدة وخدمات أساسية
حاجل الكثيرين من الناس لا يرغبون في التوجه إليها إلا عند الضرورة .

أبها عاصمة منطقة عسير ، التي أصبحت
تحمل اسم « عروس الجنوب » .



من طبيعة فائقة وجو شاعري أثار قرائح الشعراء ، وقد وصفها الشاعر بقوله :
بلاد كل ما فيها جميل

لها سحر ولا سحر الحسان
لقد درجت القافلة . من حين إلى آخر ، على القيام باستطلاعات مصورة لمختلف مناطق المملكة . وهذا الاستطلاع الذي بين أيدينا هو عن منطقة عسير التي تقع في الجزء الجنوبي الغربي للمملكة . ما بين خطي الطول ٤١ و ٤٤ وخطي عرض ١٧,٥ و ٢٠,٥ . وتقدر مساحة المنطقة بنحو ١٤٠ ألف كيلومتر مربع . ان الزائر لهذه المنطقة تطالعه معالم وتضاريس ومناخات متباينة . ورحلتنا هذه ، لاشك ، قد نقلتنا إلى عالم آخر ، فمن منطقة منبسطة على ضفاف الخليج هي المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية التي تشتهر فيها الحرارة والرطوبة حيث تبلغ الحرارة أحيانا ٤٧ درجة مئوية صيفا ، حللنا بأبها حيث تتراوح الحرارة صيفا ما بين ٢٢ و ٢٨ درجة مئوية . ومما يلفت نظر القادم إلى هذه المنطقة أنه في فصل الصيف وعند نزوله في مطار أبها والنسيم

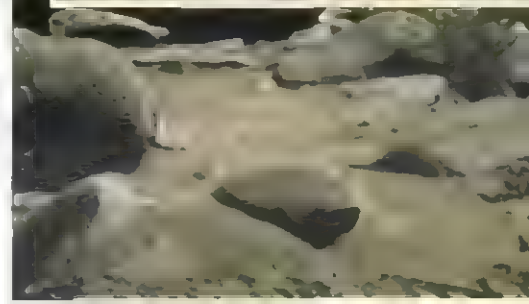
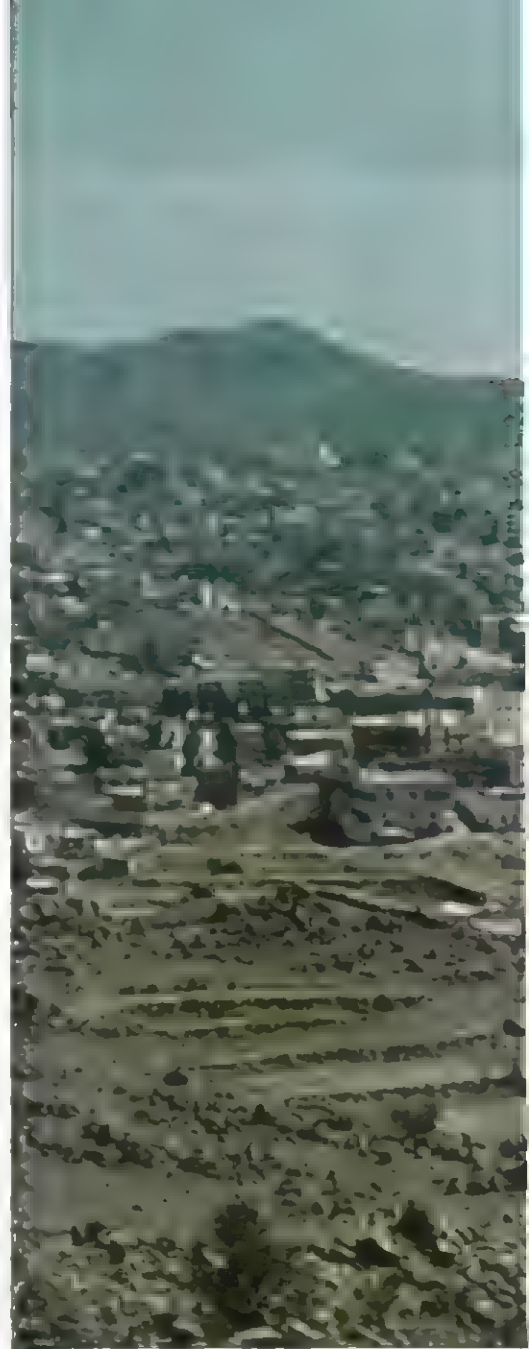
كانت عسير في الماضي .
هكذا أما اليوم فقد أصبح الصعب سهلا وامتد إليها يد البناء تمشيا مع مسيرة التطور التي تعيشها المملكة العربية السعودية . كما تم ربطها بمناطق المملكة الأخرى عبر طرق معبدة ، وتحولت القرى والهجر والأرياف برمتها إلى مدن حديثة أمثال : احد رفيدة ، سراة عبيدة ، ظهران الجنوب . تثبث . حجلا . انماص . محائل . وقامت فيها المدن الكبرى كآبها ، والخميس ، وبيشة ، كذلك اتسعت اتساعا كبيرا وانتشرت المباني بأنماطها المختلفة والمجمعات السكنية والفنادق على اختلاف مستوياتها . كما يوجد في هذه المنطقة مطاران ، هما مطار أبها ومطار بيشه . وما زالت مشاريع الإنماء تطرد تباعا في مختلف المجالات . ومن بين هذه المشاريع المتزده الوطني الذي أوشك بناؤه على الانتهاء ، والقرية السياحية بالسودة ومحطات الكهرباء وتحلية المياه ومد شبكات الطرق في أرجاء المنطقة ، وفتح كليات للتعليم العالي . كل هذه الأشياء أصبحت حقيقة ملموسة في منطقة عسير علاوة على ما حباها الله به



٣ - وحده عربي أصيل من منطقة عسير .
٤ - أحد المساجد الحديثة منتشرة في ربوع منطقة عسير .



١ - صاحب سمو الملكي أمير خلد فيصل أمير منطقة عسير يرى التطور الكبير في تشييده
منطقة .
٢ - منظر حاسي مدينة بيشه بزينة أشجار المحيل بيشه .



منطقة عسير

كان اسم عسير يطلق على منطقة محدودة هي أبها وقرى عسير المحيطة بها ، وأصبح اليوم يطلق على منطقة إدارية كبيرة حيث يحدها من الجنوب اليمن وتمتد حتى ظهران الجنوب ، فحدود منطقة نجران ، ومن الشمال سراة بالقرن وخثعم وشرمان حتى حدود منطقة الباحة ، ومن الغرب تهامة عسير فالبحر الأحمر حتى حدود منطقة جيزان ، ومن الشرق الربع الخالي فتتليث حتى حدود وادي الدواسر ، فيبشه وتباله .

أهم المدن في منطقة عسير

تضم منطقة عسير مدنا ذات أهمية تجارية وسكانية وعمرانية . وفي مقدمتها أبها ، خميس مشيط ، بيشه ، محائل ، النماص ، ظهران الجنوب ، باشوت ، سراة عبيدة ، احد رفيدة ، تنومة ، اثنين بالسمر ، المجاردة ، تثليث ، طريب ، العرين ، المضه .
وتعتبر أبها المقر الرئيسي للمنطقة وإن صحت العبارة عاصمتها ، ويتبع إمارة المنطقة حوالي ٥٦ إمارة فرعية موزعة في أنحاء المنطقة . وفي أبها حوالي ٣٠ إدارة ومصلحة حكومية .
وكان لنا لقاء مع سمو الأمير خالد الفيصل . أمير المنطقة ، وسمو نائبه الأمير فيصل بن بندر حيث رحبا بالقافلة التي أخذت تسجل بالكلمة والصورة حياة أبناء عسير لتعطي بعض اللوحات عنها . ماضيها وحاضرها ومستقبلها . فكانت هذه الجولة في قراها ومدنها وجبالها وسهولها وغاباتها وحقولها . ولاشك ان الزائر لمنطقة عسير سيستعذب مناخها ويؤخذ بجمال طبيعتها وطيبة آبائها .

لخيل إليه ان هذه ليست مدينة أبها التي كان يعندها سابقا . فهناك المجمعات السكنية ومجمعات المباني الحكومية والمراكز التجارية والفنادق العصرية ومباني الكليات وغيرها مما تعكس سمات هذا التطور . وتمتاز مدينة أبها بمعاملها الأثرية . ويحيط بها حزام أخضر ذو اتجاهين مما يتيح للزائر التجوال في أرجائها للتعرف إلى معالمها ومتنزهاتها . تلك هي أبها الحديثة .

أبها القديمة

كانت أبها القديمة ، إلى عهد قريب ، تعرف باحتضانها لعدة قرى منها : مناظر ، مقابل ، نعمان ، المفتاحة ، القرى . الربوع ، الصفيح ، الخشع ، النصب . وقد ذكر الهمداني في كتابه « صفة جزيرة العرب » هذه الأسماء ضمن أوطان عسير ، وذكر أنه يوجد فيها قبر ذي القرنين ، وقد سألنا الشيخ هاشم النعمي المؤرخ والباحث في تاريخ المنطقة ، عن صحة هذا القول ، فأجاب بأن البحث لازال جاريا حول صحته حتى الآن .

وباعتبار أبها عاصمة للمنطقة منذ زمن بعيد ، فقد مرت بمراحل تغير مستمرة . ومن ذلك أنه في سنة ١٢٤٢ هـ عندما وصل الأمير علي بن مجثل المغدي العسيري إلى الحكم . بنى أول مقر له عرف بـ « قلعة المفتاحة » . فاعتبر ذلك امتدادا لنشوء مدينة أبها . ثم شيد فيها الأمير « عائض بن مرعي » جد أسرة آل عائض حكام عسير سابقا مقرا لهم كان يعرف بقصر شدا . أما في عهد الأتراك ، فقد شهدت أبها انشاء الثكنات العسكرية . وهكذا ظلت أبها حتى امتدت إليها يد التطور في العهد السعودي حيث تحولت القرى إلى مدن حديثة تعتبر في مصاف المدن الرئيسية في المملكة .

المنعش يداعب محياه . يفاجأ بأن المستقبلين يرتدون الملابس الشتوية في غير أوانها . ولكنه عندما يهبط أرض المطار سوف يحاول أن يبحث له عن ملابس كتلك التي رآها على المستقبلين وكان ذلك واقع حالنا عند وصولنا أبها .

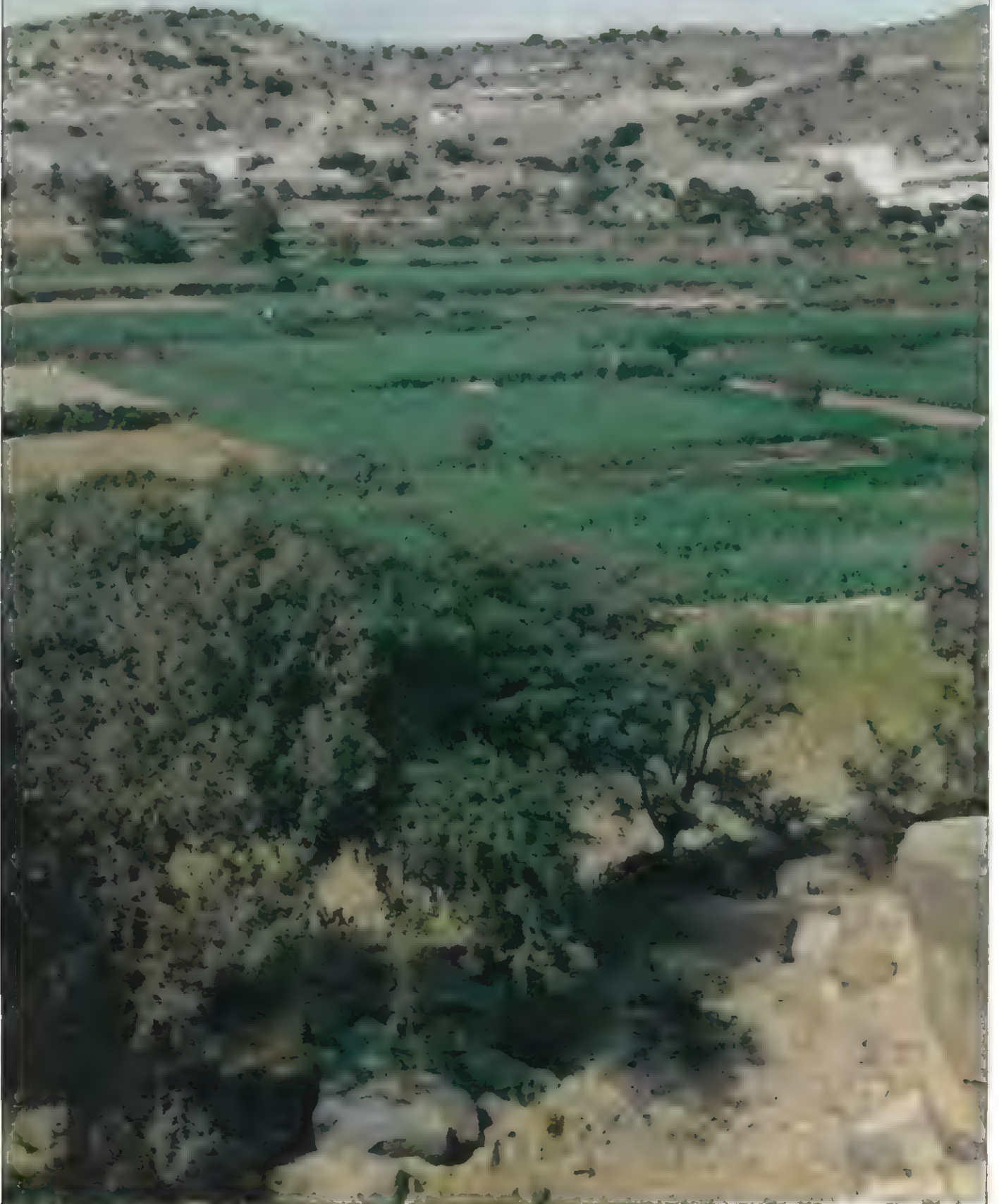
لقد كان مطار أبها في حركة دائبة أشبه ما يكون بخلية نحل ، ومما يلفت النظر في المطار هو أن مبناه الحديث قد شيدت بعض جوانبه بصخور المنطقة فتمثلت فيه معالم البيئة المحلية .

وفي طريقنا إلى أبها كنا نشاهد معالم التطور التي أخذت تنتشر في مختلف أرجاء المنطقة ، فعلى جانبي الشارع الرئيسي الذي يربط مدينة أبها بمدينة خميس ، تراءت لنا قرية باحص النموذجية ، ومباني كلية التربية ، ومبنى إدارة الشركة السعودية الموحدة للكهرباء بالمنطقة الجنوبية بالإضافة إلى المؤسسات التجارية المختلفة . كانت تطالعنا ، ونحن نغذ السير نحو مدينة أبها . الحركة العمرانية المنتشرة في أرجاء المنطقة بشكل واسع ، وعند اقترابنا من المدينة مع شمس الأصيل . تراءت لنا جبالها الشاهقة ومعالمها العمرانية بين حديث وقديم . وما أن أرخى الليل سدوله على المدينة حتى بدت أنوارها وكأنها تعانق رؤوس الجبال ، وكان سائق السيارة التي استقللناها يحدثنا عن مدينة أبها ماضيها وحاضرها وكأنه دليل سياحي لنا .

مدينة أبها الحديثة

لقد تطورت أبها تطورا سريعا فأصبحت عروس الجنوب بلا منازع وذلك لما تمتاز به من تخطيط حديث وشوارع فسيحة . ان هذا التطور السريع يجعل الشخص الذي زار أبها من قبل لا يصدق ما يراه فيها اليوم . إذ لولا وجود بعض المنازل القديمة التي تميزها

جانب من المدرجات الخضراء التي تزرع عادة
بالقمح والشعير والذرة والتي تنتشر على الطريق
الممتدة ما بين أبها والطائف .

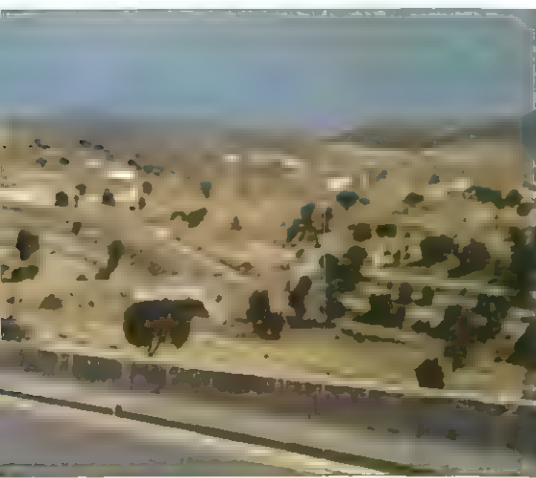


جبال تهامة الخضراء تغطي سفوحها أشجار
المرعرع ، ويبدو الطريق الترابي المؤقت عبر قمم
وبطون الأودية .



جانب من مدينة خميس مشيط التي تشهد نهضة عمرانية وتجارية كبيرة .

ترتبط مدن وقرى منطقة عسير بالمناطق الأخرى بواسطة ش



«موجان» ، ويؤكد ذلك ما قاله الشاعر
الشعبي عنها :
سوقت أنا سوق الثلاثاء
قالوا لحد مصر المقاضي
لا مثل موجاني

أي أن الشاعر ذهب إلى سوق الثلاثاء
في مدينة أبها فسوق أحد رفيه في
بلاد رفيه فلم يجدهما في مستوى
سوق خميس مشيط رواجاً وحركة .

حاضرة بلاد شهران . وقد سميت بهذا
الاسم نسبة إلى ابن مشيط شيخ القبيلة ،
وإلى السوق الأسبوعي الذي يقام فيها
كل يوم خميس ، وهي تتميز بحركتها
التجارية النشطة حيث كان يتوافد عليها
وعلى سوقها معظم سكان منطقة عسير ،
وقد كانت خميس مشيط ومازالت أكثر
المدن نشاطاً وازدهاراً بالناس . ولهذا
يحلوا لسكان الخميس أن يسموا سوقهم

لامثل ... موجاني

من أبها اتجهنا إلى مدينة الخميس ،
وكنا نشاهد على جانبي الطريق المؤدي
إلى الخميس : الأحياء الجديدة بفللها
لسكنية الحديثة ، والحدائق الجميلة ،
وملاعب الأطفال ، والقرى السياحية
حيث كانت تعج بالمصطافين . وتعد
مدينة الخميس التي تقع في أرض منسطة

جانب من مدينة أبها حيث تنعكس النها
العمراية على مبانيها السكنية الحديثة .



من معبدة تمتد على سلسلة الجبال وبطون الأودية .

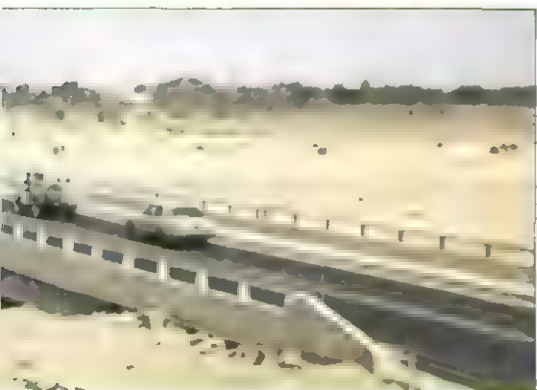


منطقة عسير حيث تبدو بالون الاخضر .



ويظهر أنه شبه كثرة الناس واقبالهم
على هذه السوق وحركتهم كموج البحر .
ومدينة خميس مشيط تشهد حاليا تطورا
تجاريا وعمرايا وصناعيا مما سيجعلها
المدينة التجارية والصناعية الأولى في
الجنوب .

وانطلقنا إلى ما وراء الخميس شرقا ،
وعلى الطريق شاهدنا مدينة الملك فيصل
العسكرية بالجنوب حيث تجثم بالقرب



يعتبر خطوة أولى في سبيل إقامة أمثاله في السراة .

وفي سراة عبيدة حظينا بلقاء شيوخ قبائل عبيده وهم : الشيخ سعد بن فردان ، والشيخ هيف بن سليم ، والشيخ محمد ابن جلاله ، ودار الحديث معهم حول المشاريع التي تضطلع بتنفيذها الدولة في منطقتهم ، وفي مقدمتها مشروع سراة عبيدة بوادي المحزمة والذي سوف يساعد . ولاشك ، على اتساع الرقعة الزراعية هناك . وكذلك مستشفى سراة عبيدة العام الذي بدئ في تنفيذه مؤخراً ، إلا أنهم يأملون في سرعة إيصال الخدمات الكهربائية لتواكب مسيرة التطور الذي تعيشه بلاد قحطان .

وحول اسم عبيدة ، كما جاء على السنة بعض الرواة ، فهو نسبة إلى أمهم ، وعلى ذمة الراوي أن سعد العشيرة ، الذي له قصة مشهورة في التاريخ ، كان ملكاً في تلك المنطقة ، وقد توفي وخلفه أبنائه ومنهم معاوية بن جنب ابن سعد العشيرة .

وابان عهد رئاسته ، وأثناء حرب « البسوس » ، لجأ إليه مهلهل الفارس المشهور ، أخو كليب بن ربيعة . من تغلب في أربعين فارساً من مواليه ومعه أسرته ومنهم عبيدة بنت مهلهل . وكانت جميلة وفارسة مع كونها من بيت أمارة في الوقت نفسه . وقد تزوجها معاوية بن جنب وأولدها أولاداً ذكوراً فانتسبوا إلى أمهم عبيدة بنت مهلهل لشرفها ، فأطلق عليهم عبيدة ، ومساكنهم تمتد من أقصى جبال السراة فالربع الخالي في الشرق حتى وادي تثليث في شمال المنطقة .

واصلنا رحلتنا في اتجاه حدود المنطقة من الجنوب ، وكنا نشاهد مظاهر التطور العمراني في كل من الحرجة وقرى شريف وسنحان المنتشرة على جانبي الطريق وفوق سفوح الجبال . والجدير

منها من الجهة الشمالية أنقاض مدينة جرش الأثرية وهي على ضفة وادي بيشة بن سالم احد مشايخ قبائل قحطان ، وفي الجهة الشرقية منها ، يقع جبل حمومة أو جبل شكر المشهور . وفي طريقنا المتجه شرقاً مررنا بمدينة احد رفيده التي تبعد عن أبها حوالي ٤٥ كيلومتراً ، ثم وصلنا وادي المربع بالقرب من بلدة الشيخ سعيد بن هيف من مشايخ قبائل قحطان . وعلى غير انتظار ، تلبدت السماء بالغيوم ومالبت أن همت بأمطار غزيرة استحالت إلى سيول فاضت بها الأودية والشعاب . وهذا الوادي تكثر فيه الأشجار والأزهار والأعشاب المختلفة مما يجعلها تجذب العديد من السكان للزومة . ثم واصلنا جولتنا باتجاه سراة عبيدة وكنا نرى على الطريق العديد من قرى رفيده وبني بشر المنتشرة في السهول وفي الجبال . وقد التقينا بالشيخ « سعد بن ثقفان » شيخ قبائل بني بشر الذي كان لنا معه حديث عن ماضي هذه المنطقة وبالذات فيما يتعلق بجبالها حيث قال : « ان هذه الجبال كان صناع الحديد المحليين يستخرجون منها الحديد الذي يصنعون منه معدات الفلاحة التقليدية وبالذات المكان المعروف « بعين اللوي » ، وهذه الجبال يسكن سفوحها بادية رفيده وبني بشر ومنهم قبائل جنب بن سعد . وبعد أن تجاوزنا رفيده وبني بشر التي تحيط بها الجبال ، اقتربنا من سراة عبيدة التي تمتاز بانسباط أرضها ، ومما يلفت النظر ، ذلك التطور العمراني ومحطات الوقود المنتشرة على جانبي الطريق ، وجبل ظلم الذي تطل من فوقه محطة تقوية البث التلفزيوني ، والذي يقف كالحارس الرقيب على مدينة سراة عبيدة تعانقه جبال آل الصقر وآل معمر وبني طلق ووقشة حيث ترقد في سفوحها القرى العديدة التي تفيق على خراب مياه سد وادي المحزمة الذي

١ - أحد لأنداق العديدة التي أنشأتها وزارة المواصلات بأسرارة وتفك عنها العزلة لتي فرصتها الصعبة عبيد .

٢ - حمر ودي بيشة بني يعتبر من فحول أودية مسكة

بالملاحظة ان طريقنا الطويل الممتد من أبها حتى الحدود الجنوبية للمنطقة ، يفضي إلى غالبية القرى . وهذا ولا شك قد استغرق الشيء الكثير سواء من الناحية الزمنية في إعداد هذا المشروع أو وقت تنفيذه . وأما الجانب المادي ، فحدث ولا حرج ، فالدولة تبذل بسخاء في سبيل راحة المواطنين في أية بقعة بالمملكة . ومن الجدير بالذكر أن منطقة قحطان الواقعة ما بين جرش وتثليث وبلاد وادعه ، كثيفة السكان وتشتهر بكثرة مزارعها وقراها الجميلة التي تتميز برواق بنائها الاقليمي ، وقد شبهها الهمداني في كتابه « صفة جزيرة العرب » بالعارض من أرض اليمامة (١) . وعلى بعد ٢٥٠ كيلومترا تقريبا من أبها ، حططنا رحالنا في مدينة ظهران الجنوب التي تشتهر بمركزها التجاري والزراعي قديما وحديثا ، وهي نقطة وصل بين تجار المملكة واليمن قديما وحديثا ، ويتوافد على سوقها التجاري أبناء قبائل وادعه وسنحان ، وشريف ، ويام ، وأبناء اليمن الشقيق الوافدون لغرض التجارة أو العمل .

بالملاحظة ان طريقنا الطويل الممتد من أبها حتى الحدود الجنوبية للمنطقة ، يفضي إلى غالبية القرى . وهذا ولا شك قد استغرق الشيء الكثير سواء من الناحية الزمنية في إعداد هذا المشروع أو وقت تنفيذه . وأما الجانب المادي ، فحدث ولا حرج ، فالدولة تبذل بسخاء في سبيل راحة المواطنين في أية بقعة بالمملكة . ومن الجدير بالذكر أن منطقة قحطان الواقعة ما بين جرش وتثليث وبلاد وادعه ، كثيفة السكان وتشتهر بكثرة مزارعها وقراها الجميلة التي تتميز برواق بنائها الاقليمي ، وقد شبهها الهمداني في كتابه « صفة جزيرة العرب » بالعارض من أرض اليمامة (١) . وعلى بعد ٢٥٠ كيلومترا تقريبا من أبها ، حططنا رحالنا في مدينة ظهران الجنوب التي تشتهر بمركزها التجاري والزراعي قديما وحديثا ، وهي نقطة وصل بين تجار المملكة واليمن قديما وحديثا ، ويتوافد على سوقها التجاري أبناء قبائل وادعه وسنحان ، وشريف ، ويام ، وأبناء اليمن الشقيق الوافدون لغرض التجارة أو العمل .

مواقع سياحية - حقول زراعية - كثافة سكانية

أثناء وجودنا في أبها ، تلقينا دعوة من مديرية الشؤون الصحية بالمنطقة الجنوبية لحضور ندوة صحية أقامتها في مدينة بيشه . فكانت فرصة طيبة للوقوف على المشاريع الصحية في المنطقة . وانطلقنا بالسيارة عبر جبال وقرى عليكم الجميلة ، وكنا نصعد جبلا ونهبط آخر مرورنا ببلاد باللحمر وباللسمر حتى وصلنا شلال الدهنا حيث المياه والغابات بالقرب من تنومة ، مقر الشيخ محمد الشبلي شيخ قبائل بني الأثلة بني شهر . والواقع أن منطقة رجال الحجر على وجه

بيشة الفيحاء

بعد أن مررنا بسبت العلاء ، وهو مجمع حكومي ، تردد عليه معظم قبائل بالقرن وخثعم وشمران لانجاز

(١) صفة جزيرة العرب - ص/ ٢٠٢ .



كل من عقبة شعار وضلع والوجه لتربط منطقة تهامة

ق طوله حوالي كيلومترين .

معاملاتهم الرسمية ، سلكنا طريق بيشه النخل وعندها تغيرت مظاهر الطبيعة ، فمن أرض جبلية وعرة مكسوة بالغابات إلى أرض منبسطة سهلة ، أخذنا نقرب رويدا رويدا من بيشه ، وكانت النخلة هي الوجه المشرق لهذه المنطقة ، وقد مررنا بالكثير من الأودية التي تقوم على ضفافها العديد من القرى حتى وصلنا إلى وادي بيشه المشهور الذي يعتبر من فحول الأودية في المملكة والذي يقدر طوله بحوالي ٣٥٠ كيلومترا .



سعادة الشيخ حسين بن عبد الله آل زلفه ، أمير بيشه بسوككة يقول : تمر بيشه يصف بين النمر جيدة في المملكة .

وقد دلفنا مدينة بيشه من على الجسر الواصل بين ضفتي الوادي والممتد حوالي كيلومترين ، وكانت تحيط بها بساتين النخيل من كل جانب . وتمتاز مدينة بيشه بشوارعها الفسيحة وأشجار نخيلها التي تعانق كل شيء من حولها وكأنني بها وهي تقول . أنا سيدة الديرة . وفي مقر الامارة استقبلنا سعادة الأمير حسين ابن عبد الله آل زلفه الذي حدثنا عن أهمية بيشه تجاريا وزراعيًا . وتمر بيشه معروف لدى أبناء المملكة وله شهرة واسعة ، وعلى وجه الخصوص في منطقة الجنوب . وأرض بيشه خصبة ومياهها وفيرة ، فبالإضافة إلى وجود النخلة التي هي دعامة الزراعة فيها ، تقوم زراعة

الحمضيات بأنواعها والخضروات . وفي منطقة بيشه مطار . وهي مرتبطة بطريق معبد يلتقي بطريق أبها / الطائف . وهذا المشروع ولا شك يخدمان منطقة بيشه بشكل فعال . ومن المشاريع التي توليها الدولة أهمية خاصة . توزيع الأراضي البور على الراغبين من سكان بيشه . واستغلالها على الوجه الأمثل بالإضافة إلى تقديم العمود المسادي والاستشاري لهم .

ولتصريف المنتجات الزراعية الوفيرة في بيشه . اعتمد في ميزانية هذا العام بناء شبكة من الطرق المعبدة تربط

بيشه بخميس مشيط . كما ستخدم في الوقت نفسه العديد من القرى والهجر التابعة لبيشه . وكذلك ربط كل من رنيه وتثليث بمدينة بيشه . وهناك وصلات طرق يجري تنفيذها لربط معظم قرى المنطقة بالمدينة نفسها . بالإضافة إلى شبكة من الطرق الزراعية التي تربط اجزاء المنطقة بعضها ببعض . وتعتبر خميس مشيط وأبها وبلاد قحطان ورجال الحجر والرياض والطائف والباحة . أسواق لمنتجات بيشه الزراعية . وتعد الروشن المقر الرئيسي للمنطقة حيث توجد الامارة التي يتبعها خمسة مراكز موزعة في أنحاء المنطقة . ولتوفير الراحة والخدمة للمواطنين . هناك عدة إدارات حكومية في بيشه منها إدارة الطرق . والبلديات . والأوقاف . والمالية . والأحوال المدنية . والبرق والبريد والهاتف . والضمان الاجتماعي . ومستشفى عام وعدة مستوصفات وغير ذلك من المرافق الأخرى . وأثناء وجودنا هناك حظينا بمقابلة العديد من المسؤولين والمواطنين في بيشه ، الذين يتطلعون إلى قيام كلية للزراعة في منطقتهم تسهم في تنشيط هذا القطاع الحيوي علميا . لتأخذ منطقة بيشه دورها كالمناطق الزراعية الأخرى في المملكة ، في سد حاجة



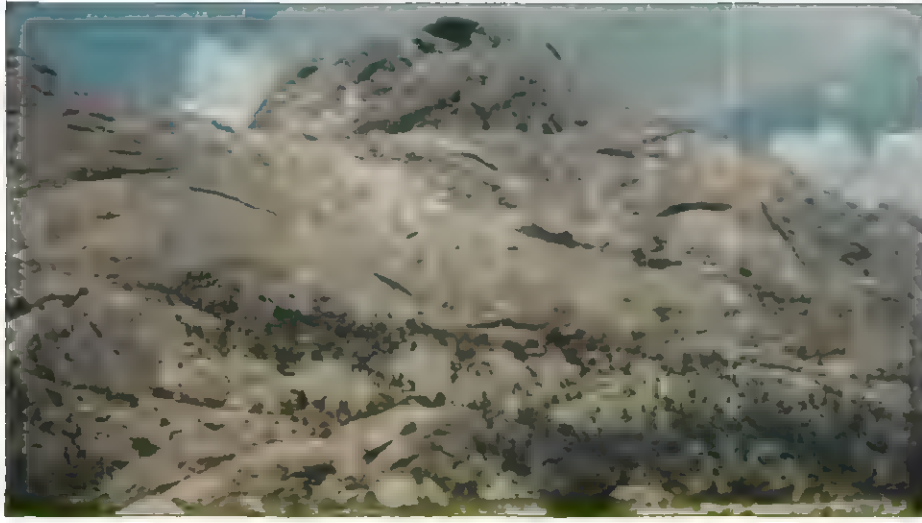
جانب من الندوة الصحية التي أقيمت في مستشفى بيشه العام ويبدو في مقدمة الحضور ، سعادة أمير بيشه بالوكالة ، وسعادة المدير العام للشؤون الصحية في المنطقة الجنوبية ، وقضيلة رئيس المحاكم الشرعية في بيشه ، ومشايخ قبائل بيشه والأعيان .

تتجه الطرق من مدينة أبها إلى بقية المناطق
وينحدر هذا الطريق عبر هذه الغابات في اتجاه
مدينة بيشة مروراً بقبائل علكم من عير ورجال
الحجر وبالقرن وششم وشمران .



البلاد من خيراتها وما ذلك ببعيد ،
إن شاء الله .

وفي لقاءات متفرقة مع كل من
الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن
آل الشيخ مدير الأوقاف ببيشه ، والشيخ
مشاري بن عامر الصعيري شيخ قبائل
بني سلول والأستاذ سعيد عبد الله الغامدي
مدير إدارة إمارة بيشه ، كان الحديث
يدور حول ماضي بيشه وحاضرها وأهميتها
زراعية . وما قالوه انه بالإضافة إلى كون
بيشه منطقة زراعية فانها كانت ولا تزال
مركزاً استراتيجياً ممتازاً حيث كانت نقطة
التقاء بين تجار الجنوب ونجد والحجاز
مشيرين إلى أن بيشه قابلة للتطور بحكم
موقعها وخاصة في مجال الزراعة وإذا
ما تضافرت جهود الدولة والأهالي فستصبح
من أهم المناطق الزراعية في المملكة
حيث تتوفر فيها المياه بغزارة بالإضافة إلى
تربتها الخصبة . أما الأستاذ سعيد
الغامدي والمهتم بتاريخ بيشه والذي رافقنا
في جولتنا ، فمما قاله : « كان يسكن
وادي بيشه قديماً وحديثاً ، بنو سلول
من قبائل شهران وكانت قبائل خثعم
تغير على بني سلول لطردهم من هذا
الوادي فحمل عبد الله بن همام السلولي
الشاعر ، شيئاً من ماء بيشه وتربتها
إلى هشام بن عبد الملك في الشام
وطلب إليه استصلاح هذه الأرض لخصوبة
أرضها ، فأمر هشام عامله بمكة المكرمة
بأن يرسل إلى المكان المسمى « المعمل »
في بيشه مئتي زنجي من وادي فاطمة
المعروف بالحجاز وذلك لاستصلاح المعمل
وبهذا فقد أنقذنا من غارات خثعم
وبقي بنو سلول وقبائل شهران مع اخوانهم
قبيلة أكلب من خثعم وغيرهم في وادي
بيشه واستصلحوا الأرض وزرعوها .
وينحدر نسب القبيلتين كما جاء على
لسان المؤرخين ، من الأزدي من القحطانية .
وقد أشار إلى أن بيشه تشتهر بواديها
الذي ربما كان هو اسمها ويرفد هذا



أحد جبال بني شهر الواقعة في منطقة عسير .



سد وادي انحرمة الذي أقامته وزارة الزراعة في سراة عبيدة .

الوادي عدد كبير من الأودية كان لبعضها
شهرة عظيمة ، ومنها ، وادي ترج
الذي يلتقي بوادي بيشه عند قرية الحيفة ،
ومنبعه من أعالي ديار رجال الحجر
وفيه يقول الشاعر ابن مقبل

جاءوا بها الشم العجاف كأنهم
أسود بترج أو أسود بعنودا

وقال الخزانة العامري في خصب ترج
وغنى تربته :

وكأن النخيل من بطن ترج
وهي حوم حنادس ظلماء

ومن روافده أيضاً ، وادي تباله .
وينسب إلى تباله بيت « ذو الخلصة » ،
وهو من الأصنام التي كانت العرب
تقدسها في الجاهلية . ومع ما ذكره

الوادي عدد كبير من الأودية كان لبعضها
شهرة عظيمة ، ومنها ، وادي ترج
الذي يلتقي بوادي بيشه عند قرية الحيفة ،
ومنبعه من أعالي ديار رجال الحجر
وفيه يقول الشاعر ابن مقبل

جاءوا بها الشم العجاف كأنهم
أسود بترج أو أسود بعنودا

وقال الخزانة العامري في خصب ترج
وغنى تربته :

وكأن النخيل من بطن ترج
وهي حوم حنادس ظلماء

الوادي عدد كبير من الأودية كان لبعضها
شهرة عظيمة ، ومنها ، وادي ترج
الذي يلتقي بوادي بيشه عند قرية الحيفة ،
ومنبعه من أعالي ديار رجال الحجر
وفيه يقول الشاعر ابن مقبل

جاءوا بها الشم العجاف كأنهم
أسود بترج أو أسود بعنودا

وقال الخزانة العامري في خصب ترج
وغنى تربته :

وكأن النخيل من بطن ترج
وهي حوم حنادس ظلماء

ومن روافده أيضاً ، وادي تباله .
وينسب إلى تباله بيت « ذو الخلصة » ،
وهو من الأصنام التي كانت العرب
تقدسها في الجاهلية . ومع ما ذكره

الوادي عدد كبير من الأودية كان لبعضها
شهرة عظيمة ، ومنها ، وادي ترج
الذي يلتقي بوادي بيشه عند قرية الحيفة ،
ومنبعه من أعالي ديار رجال الحجر
وفيه يقول الشاعر ابن مقبل

جاءوا بها الشم العجاف كأنهم
أسود بترج أو أسود بعنودا

وقال الخزانة العامري في خصب ترج
وغنى تربته :

وكأن النخيل من بطن ترج
وهي حوم حنادس ظلماء



سمو أمير منطقة عسير يتحدث إلى كاتب السطور عن ماضي المنطقة وحاضرها ومستقبلها .



تنتشر المجمعات السكنية على الطريق الرئيسي بين مدينتي أبها والخميس .

لقد أخذنا الحديث عن أهمية بيشه فكندا لا ندرك الندوة الصحية التي دعينا إليها في مستشفى بيشه ، والواقع أنه في ليلة هادئة عاش مستشفى بيشه العام ندوة صحية سادها جو من الحوار الهادف في سبيل تطوير الخدمات الصحية في منطقة بيشه حيث نظمت مديرية الشؤون الصحية بالمنطقة الجنوبية لقاء بين منسوبيها والمواطنين وبعض المسؤولين لبحث ودراسة الخدمات الصحية والعمل على تحسينها .

هذا وقد أجاب سعادة الدكتور عبد الرحيم محمد عقيل ، مدير عام الشؤون الصحية بالمنطقة الجنوبية وزملاؤه عن جميع استفسارات المواطنين فيما يتعلق بتطوير الخدمات الصحية في مستشفى بيشه والمستوصفات التابعة له . وقد أوضح سعادته ما للوقاية الصحية من أهمية أخذا بالقول المأثور « درهم وقاية خير من قنطار علاج » .

وبعد .. فهذه لمحة سريعة عن منطقة عسير ، وسنتناول في العدد القادم ، إن شاء الله ، جانباً من المشاريع الحيوية التي يجري العمل على تنفيذها في ربوع المنطقة □



مبنى مطعم الديوان في قرية باحص النموذجية . تصوير : علي عبد الله خليفة

تباله وترج وبيشه فهي من أعراض نجد ، ولا يكون بها أسد ولم يكن ، وإنما تريد العرب أسود بيش ، وهي مواضع الأسد ووادي بيش في تهامة عسير ، ويزيدون فيه الهاء ويقولون بيشه بفتح الباء ، وبيشة بعطان فهي بكسر الباء ، وأن رؤوس هذه الأعراض من أعلى السراة ، منها ما ينحدر إلى نجد ومنها ما ينحدر إلى تهامة ، فما انحدر إلى تهامة فالأسد فيه ولهذا الجوار نسبها إلى هذه الأعراض ، وربما قد طلع منها الواحد إلى أرض نجد قاطعاً من بلده فعات فيها ، فلعل أول من نسب الأسد إلى هذه المواضع عايش الواحد والزوج في بعض هذه الأودية » (٢) .

وتباله واديين من فحول أودية بيشه ، أما عتود فهو واديان ، أحدهما يتجه شرقاً والآخر غرباً ، وكلاهما ينبع من عقبة عتود في بلدة آل يزيد من بني مغيد من قبائل عسير ، فأما الذي ينحدر غرباً فيصب في تهامة في وادي بيش . أما الذي يتجه شرقاً ، فيصب في قرى آل رشيد في خميس مشيط ثم يتجه إلى بيشه .

ويرجح الهمداني أنه لم تكن بهذه الأودية أسد في الماضي حيث قال في كتابه « صفة جزيرة العرب » تحت عنوان : مواضع الأسد في هذه الجزيرة المضروب بها المثل ما يلي : « أسد تباله وأسد ترج وبيشه وأسد عتود ، فأما

المساجد الأثرية بالقاهرة

بقلم: (البراهيم أحمد السنهجي) / هيئة التحرير



قد تلاشت خلال العقد الماضي ، وأن زوال الآثار الإسلامية يزداد سنة بعد أخرى ويخشى ألا يظل منها غير القليل . ويذكر التقرير أن حوالي ٦٠٠ أثر إسلامي كانت موجودة في القاهرة حتى عام ١٨٨١ م ، وإذا ما نظرنا إلى ما تلاشى منها منذ ذلك التاريخ نجد أنه بلغ حوالي ٢٠ في المئة ، وإذا استمر الحال هكذا فإن كثيرا من الآثار الإسلامية ذات القيمة المعمارية ستلاشى . ومعها ستفنى آثار المهندسين والفنانين المعماريين المسلمين الذين أبدعوا خلال القرون الأولى لدخول الإسلام إلى مصر وخلال عصور الفاطميين والمماليك والعثمانيين . ويقول خبير في هذا الشأن إن من أهم الأسباب تلف شبكات تصريف المياه الصحية . فالآثار الإسلامية تقوم في الأحياء الشعبية التي أصبحت مكتظة بالناس . والشبكات فيها محدودة الطاقه . والمياه الصحية فيها إذا ما تسربت تفاعلت مع أساسات المباني وأحدثت فيها آثارها السيئة . أضف إلى ذلك زيادة حركة المرور وخاصة الشاحنات . فضغطها على التربة من تحتها يؤثر على أسس الأبنية التي تمر بجانبها . فما بالك بالطرق الضيقة القديمة التي بالكاد تمر الشاحنة خلالها علاوة على تخطتها بها . في بعض الحالات ، مما يزيد الأمر سوءا .

الشك أن ظهور الإسلام قبل أربعة عشر قرنا قد غير وبطل الكثير من التقاليد والعادات ، وعُدل وطور العديد من الأساليب والنظم ، كما أوجد نموذجا فريدا من الحياة المجتمعية تميز وعرف فيما بعد بالمجتمع الإسلامي . وتبع لهذا النمط الحديث من الحياة تطورت أساليب العيش وأشكال السكن بما يتفق وهذا الدين الحنيف . والواقع أن المسجد كان أول أنماط المباني الإسلامية التي تميزت عن غيرها من المباني ذات الأغراض المتعددة . فكان . ولا يزال في بعض الحالات والأقطار ، مكان عبادة وشورى وقضاء ودار علم وثقافة . يؤمه الناس على اختلاف مستوياتهم العلمية والاجتماعية . يتساوون فيه مقصد عبادة ، ومطلب علم وصلاح . والآثار الإسلامية في القاهرة تعد بالآلاف ونجدها موزعة في مختلف الأحياء الشعبية بالقاهرة . وقد نجد بعضها متقاربا جدا كما في شارع المعز لدين الله ، بين القصرين سابقا . فتكاد تقف أمام المسجد وتشاهد غيره على مسافة منك . على أن الآثار الإسلامية في القاهرة آخذة في التلاشي والاندثار . فقد جاء في تقرير نشرته منظمة « اليونسكو » قبل أشهر أن حوالي مئة أثر قد اندثر خلال القرن الأخير . وأن نحو ٤٠ أثرا



ومن الأسباب الأخرى التي يعزو الخبير إليها زوال المباني الأثرية وجود بعض الحنفيات العمومية لمياه الشرب في جدران تلك المباني (سيل) ، كما أن ضغط المباني حولها قد منع عنها التهوية فزادت نسبة الرطوبة وظهرت الأملاح على حجارتها وخاصة السفلية منها والقريبة من الأرض ، مما يهدد بسرعة زوالها عاما بعد عام .

وزيارة المساجد الأثرية أو القديمة في القاهرة مشوقة إذا كانت بقصد السياحة والاطلاع على آثار الأقدمين ، أما إذا كانت الزيارة بقصد الدراسة والاستطلاع ، فإن الأمر لاشك يحتاج إلى جهد ومشقة لما يلزم لذلك من بحث وتقصى . فمعرفة الأسس والأصول ، تختلف عن مشاهدة الواجهات والزخارف والنقوش . بصورة عابرة بقصد الترويح عن النفس والاستمتاع بروية ما أنجز الآخرون .

وقد يختلط أمر المساجد الأثرية القديمة بالحديثة والمجددة ، بالنسبة للزائر العادي أو السائح . وخاصة إذا كان المسجد يحمل اسم أحد الصحابة أو التابعين . فجامع السيدة زينب . ابنة علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، الكائن في الحي الذي يحمل هذا الاسم ،

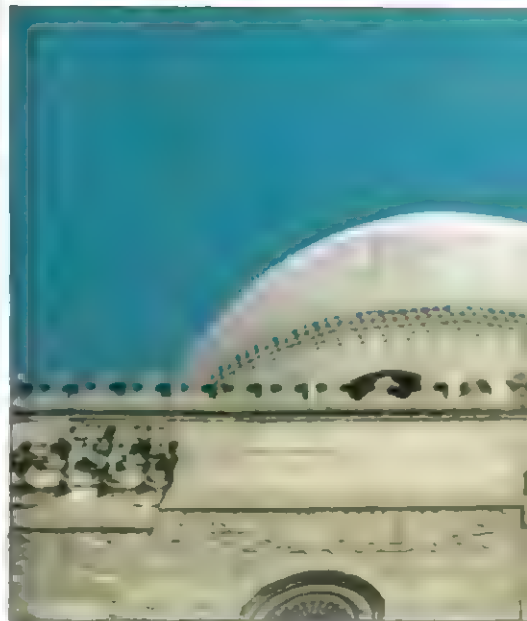
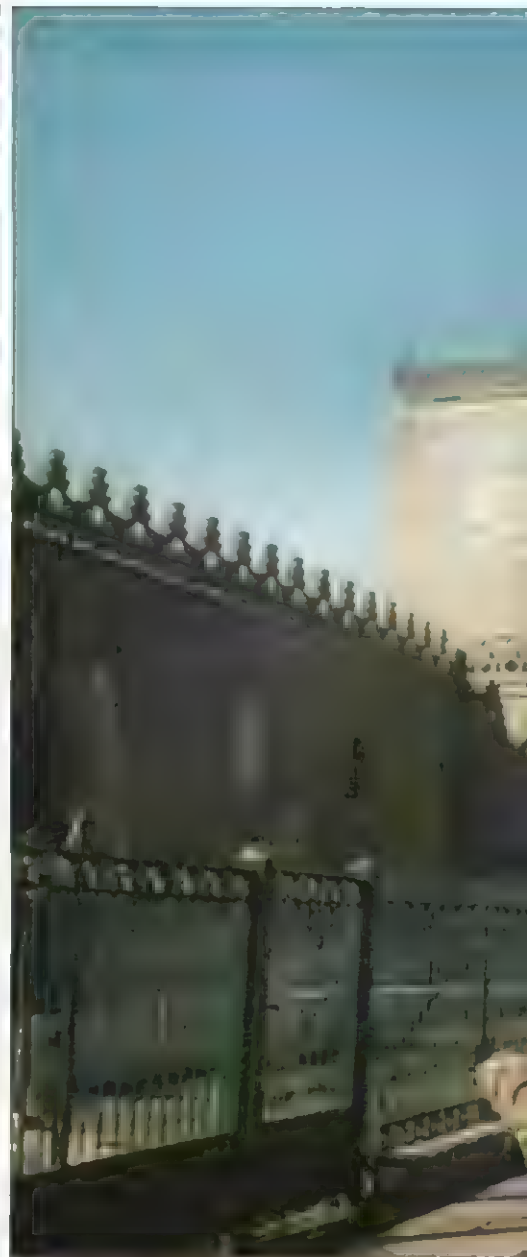


١ - جامع الملك الصالح نجم الدين بالقرب من باب الفتوح .

٢ - مثناة ذات ستة أضلاع تقوم كل من زواياها الست على ثلاثة أعمدة ، وفي كل ضلع ما يشبه الباب ، وهي على ثلاث طبقات وذات زخارف جميلة .

٣ - جامع الرفاعي بميدان صلاح الدين في القلعة .

٤ - مثناة قايتباي بالجامع الأزهر ، ويظهر في أعلاهما مقصورتان تعلوهما قبتان وشيقتان .





- ١ - مصر حالي لا أحد مساحه العتيقة وقد ظهرت مثل في مؤرخة الصورة .
- ٢ - مسجد قديم لا زال يحتفظ بقوسه وقد بدت بعد أشجار في مدخله .
- ٣ - مبنى بيت دال يوسط صحن مسجد عمرو بن العاص

أقامته وزارة الأوقاف عام ١٩٤٠ م . وقد يكون البناء الحالي قد أقيم في مكان مسجد قديم درست آثاره وكان قد سمي بهذا الاسم من قبل . أما أن تكون السيدة زينب قد أمرت ببنائه في بادئ الأمر ، فهذا شيء لم تؤكد جمهرة المؤرخين لا سيما وأنها لم تقم في مصر أكثر من سنة واحدة ، حيث وصلتها في شعبان عام ٦١ هـ . وقضت نحبها في العام التالي . كما تقول بعض المصادر . أضف إلى هذا الحالة التي كانت عليها في ذلك الوقت العصب ولم يكن قد مضى غير فترة قصيرة على استشهاد شقيقها . وهناك من المصادر ما ينفي أصلاً ذهاب السيدة زينب إلى مصر (١) .

على أن اختلاط الأمر على الزائر لا يفسد متعة السياحة والتجوال ، فجديد اليوم سيغدو قديماً يوماً ما ، كما كان قديم اليوم جديداً يوماً ما . ولا شك أن مقارنة العمارة القديمة ، بالمتوسطة القدم ، وبالحدیثة سبدي للمشاهد بعض نماذج التطور والتشكيل الهندسي الجميل في ما سلف وما خلف .

وليس من المبالغة القول إن الزائر للآثار الإسلامية في القاهرة سيقضي أياماً عديدة وهو يجول فيها متنقلاً بين أثر وآخر . فما بالك بالدارس المستطلع لتلك الآثار والمشاهد !؟ كلاهما . لا شك . سيكل ويتعب . وسيغض الطرف عن أثر لم يسمح له الوقت بزيارته . وربما يقنع نفسه بالتقليل من أهميته شأنه . وعلى أية حال إنها مجرد حولة في بعض تلك المساجد الأثرية .

مسجد عمرو بن العاص

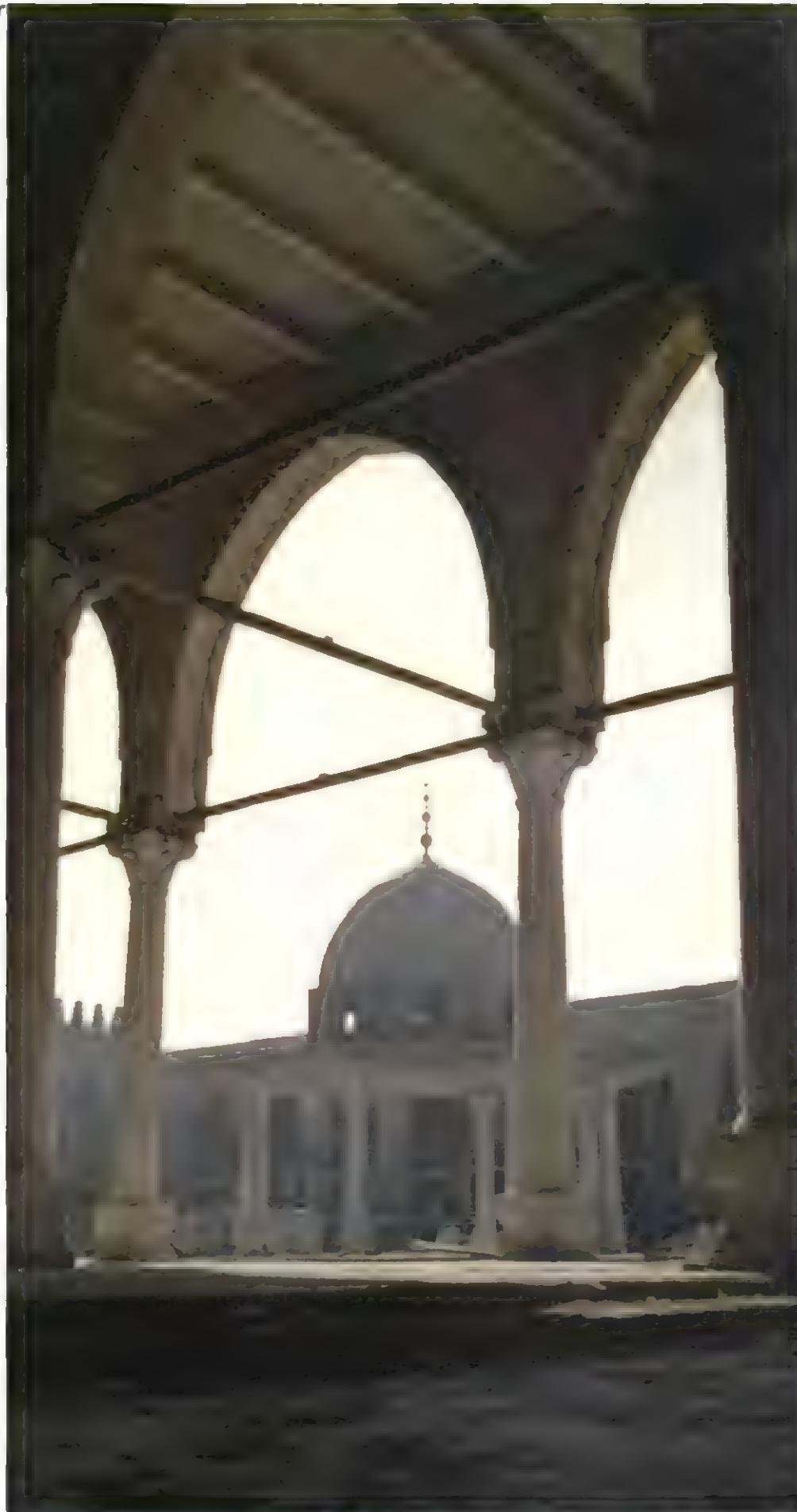
لقد كانت مصر من أوائل الأقطار التي فتحها المسلمون خارج شبه الجزيرة العربية . إذ تم ذلك بقيادة عمرو بن (١) -علاء- حيدر بن -عزلة- ح ٣٠٠ ص ١٠٨ هـ .

من الناس ويتحدث فيها عدد من العلماء
والفقهاء الأجلاء . كما كانت تعقد
سوق تجارية في باحاته .

الجامع الأزهر

يذكر المؤرخون أن جوهر الصقلي
هو الذي أمر ببناء الجامع الأزهر في
القاهرة وكان ذلك في عام ٣٥٩ هـ .
وتم انجازه خلال عامين فقط . وفي
العصر الفاطمي كانت للأزهر مكانة
عالية إلا أن أهميته قد أخذت
بالاضمحلال خلال حكم الأيوبيين .
ولقد بدأ التدريس في الجامع الأزهر
بعد اقامته بسنوات معدودة - حوالي عام
٣٧٨ هـ . غير أن كثرة بناء المدارس
أيام الدولة الأيوبية ورعايتها من قبل
أولي الأمر قد اجتذب الكثيرين من
طلاب العلوم الشرعية في الأزهر . وفي
العصر المملوكي عادت للأزهر أهميته
وأصبح له شأن حتى في سياسة الدولة - كما
تقول بعض المصادر التاريخية . وبطبيعة
الحال كانت مواضيع الدراسة في الأزهر
تتناول المواد الدينية الشرعية والفقهية
والحديث والأدب والنحو والصرف والبلاغة
وعلم الاجتماع وما إلى ذلك . وكان
العالم أو المدرس يجلس في أحد جوانب
الجامع ويجلس حوله الدارسون مشكلين
دائرة حوله ، ومن ذلك جاءت التسمية
« حلقات الدرس » . وظل شأن الأزهر
خلال عمره الطويل يتراوح بين مد وجزر
حتى تقرر جعله جامعة كاملة في عام
١٩٦١ م ، بالإضافة إلى كونه مكان
صلاة وعبادة ، تدرس فيه سائر العلوم
الحديثة من طب وهندسة وما إلى ذلك
علاوة على الدراسات الإسلامية وأصول
الدين والشريعة إلى آخره .

وكغيره من المساجد لم يبق الأزهر
على الحال التي بني عليها ، فقد زيد فيه
أكثر من مرة حتى أصبحت مساحته
اليوم تساوي ضعف ما كانت عليه



لدى انشائه . وقد أقيم بناؤه القديم على شكل أروقة وعقود نقشت واجهاتها بكتابات وزخارف نباتية جميلة . وفي الرواق الغربي للأزهر ، تقوم مثذنة جميلة من الحجر المزخرف كان قد أمر ببنائها السلطان قايتباي سنة ٨٧٣ هـ . وإلى اليسار منها ، مثذنة السلطان الغوري وقد أمر ببنائها عام ٩١٥ هـ . وأنجزت بعد نحو خمس سنوات ، وهذه المثذنة قبتان منفصلتان تقومان على حجرتين منفصلتين أيضاً ، لكل منهما سقف مرتفع يقوم على أربعة أقواس ، واحد من كل جانب . وقد كسيت هذه المثذنة بالقيشاني الجميل . وفي العهد العثماني أمر الأمير عبد الرحمن كتحدا بتوسعة المسجد وزاد فيه زيادة كبيرة .

ويوجد في الأزهر عدد من المحاريب ، أحدها محراب المدرسة الاقباوية ذو النقوش الجميلة والزخارف البديعة . كما يوجد فيه عدد من الأروقة لاتزال تحتفظ بأسمائها مثل رواق الأتراك ، رواق المغاربة ، اليمنية ، البغدادية ، الصعايدة وغير ذلك من الأسماء التي ربما كانت مخصصة للفئة المسماة باسمها . ومن أشهر الأبواب فيه باب قايتباي والباب العباسي ، وباب المغاربة . أما الباب الرئيسي فمعروف باسم باب المزينين وقد أنشأه الأمير عبد الرحمن كتحدا عام ١١٦٧ هـ .

جامع أحمد بن طولون

تم بناء جامع أحمد بن طولون في عام ٢٦٥ هـ . بعد أن أنفق في بنائه الأموال الطائلة بالنسبة لتلك الأيام . وقد أقيم المسجد في وسط مدينة القطائع التي اختطها ابن طولون لتكون مركزاً له . وجعلت له مثذنة تشبه إلى حد ما الشكل الحلزوني . كما زينت جدرانه ومحاريبه بالكثير من النقوش والكتابات الجميلة . وقد أقيم في وسط الساحة



التي تتوسط أروقة الجامع بناء ذو قبة جميلة تقوم تحتها نافورة فرش ما حولها بالرخام ، كما أمر ابن طولون ببناء مرافق المياه خلف المسجد تزيئها له . وفي عام ٣٧٦ هـ ، احترقت النافورة التي بالجامع ثم أصاب المنطقة التي تحيط به خراب فقل رواده إلا من التجار الغرباء الذين كانوا يأتون البلاد فيقيمون حواله بدوابهم وتجارتهم .

وفي عهد السلطان حسام الدين المنصوري ، الذي استولى على الحكم عام ٦٩٦ هـ . جدد الجامع تجديداً شاملاً ورتب من يقوم بتدريس الفقه فيه كما رتب له من الخدم من يقوم بشأنه ، وجعل لهم مخصصات ، أو رواتب معلومة .

وفي عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون أنشئ بالجامع منارتان ، ثم أقيم به رواق وجددت فيه مرافق المياه . ثم أصابه إهمال كبير على مر الزمن . وقد أقيم جامع ابن طولون على شكل مربع طول كل ضلع من أضلاعه نحو ١٦٢ متراً ، كما أن شكل الصحن ، بداخله ، مربع أيضاً يبلغ طول ضلعه نحو ٩٢ متراً . وكان به أصلاً ٢١ باباً ثم أضيف إليه عدة أبواب أخرى . ويعتبر جامع ابن طولون من الجوامع الأثرية ذات القيمة التاريخية والمعمارية لما يحويه من النقوش والزركشات الجميلة . كما أن فيه لوحة تذكارية من الحجر الصلب كتب في أولها آية الكرسي ، كما ذكر في آخرها تاريخ الجامع وهو ، شهر رمضان سنة خمس وستين ومائتين للهجرة .

مسجد الصالح طلائع

يقع هذا المسجد على مقربة من باب زويلة ، وقد بنى في حوالي منتصف القرن السادس الهجري ، غير أن صلاة الجمعة لم تقم فيه إلا بعد نحو قرن من الزمان ثم انه تهدم في مطلع

١ ، ٢ - من المآذن ما تقوم على قاعدة مربعة فترفع طبقة أو اثنتين أو ثلاث قبل أن تأخذ في الاستدارة .

العصر العثماني ، مرّ المسجد بعمليات من الترميم والصيانة والزيادة وتجديد السجاجيد والبسط . وفي الخمسينات من القرن الميلادي الحالي زيد في مساحته أكثر من الضعف فأصبحت ٣٣٤٠ مترا مربعا ، وكانت من قبل نحو ١٥٠٠ متر مربع ، وقد تمت أعمال التجديد والزيادة عام ١٩٦٣ م .

وقد اهتم المهندسون الذين أشرفوا على أعمال الزيادة لتكون مماثلة للمباني القديمة وخاصة الجانب الخارجي من الجدران التي يبلغ سمكها نحو ٨٠ سنتيمترا . كما أقيمت في الجانب الشرقي

وتجديده ، ثم جدده عبد الوهاب العيني عام ٨٤٤ هـ .

مسجد الحسين

ربما تكون نواة المسجد قد بنيت عام ٥٤٩ هـ . ولما جاء صلاح الدين الأيوبي أقام في المكان مدرسة . وفي عهد الملك الصالح نجم الدين ، بني رواق آخر وخصص كذلك للتدريس . وفي عام ٦٤٠ هـ احترق البناء وأعيد ترميمه ، وفي سنة ٦٨٤ هـ أمر الملك الناصر محمد ابن قلاوون بتوسعة المسجد وبناء بيوت للعلماء والفقهاء العاملين فيه . وخلال

القرن الثامن الهجري عندما حدث الزلزال سنة ٧٠٢ هـ . وأعيد بناؤه بعد ذلك . ومسجد الصالح مستطيل الشكل تبلغ مساحته ١٥٢٢ مترا مربعا ، منها ٤٥٤ مترا مربعا مساحة الصحن الذي يتوسطه . والمسجد عبارة عن مجموعة من الأروقة أو العقود التي تقوم على أعمدة من الرخام . ويوجد به من ناحية القبلة ثلاثة أروقة كتبت عليها آيات قرآنية بالخط الكوفي . كما أن النوافذ الكائنة بتلك الجهة مزخرفة بنقوش من الجص . وقبل حدوث الزلزال بثلاثة أعوام ، قام الأمير « بكتمر الجوكندار » بعمارته



اهتم المعماري المسلم بتزيين الأبواب والمحاريب بنقوش جميلة ذات أشكال متداخلة ببعضها البعض . تصوير : عبد الله الديس

مكتبة خاصة بالمسجد وكذلك مبنى يتألف من طابقين ليكون بمثابة مكاتب للقائمين على إدارته .

أما قبة المسجد ، وهي مستطيلة الشكل قليلا . فقد أقيمت في حوالي منتصف القرن التاسع عشر (١٨٥٠ م) كما تقول بعض المصادر . وتقوم القبة على أقواس ذات نقوش وزخارف رائعة . ويقوم سقف المسجد على ٤٤ عمودا من الرخام ، وهو مزين بزخارف ونقوش نباتية جميلة . أما منبر المسجد فيقال بأنه كان سابقا لجامع أزبك وقد نقل منه عندما تهدم ، وأقيم في مسجد الحسين □



منذ ذوات ثلاث طبقات . الأولى منها مضلعة ، وفي أعلى المنذنة قبة تقوم على قاعدة أقل قطرا من القبة .

مجالات العقل في التشريع الإسلامي

بقلم : د. هاشم ياسيني / الجامعة الأردنية

مجله العقل في التشريع لا يختلف فيه اثنان ، لأن التشريع في ضبطه علاقات الناس يعتمد في تفهم هذه العلاقات ثم في ضبطها اعتمادا واسعا على العقل ، ونشاط رجال القانون في مختلف العصور يقوم أول ما يقوم على النشاط العقلي ، وإن كان في بعض العصور قد عرج على شيء من النشاط الوجداني في عرض قضاياها عرضا أدبيا وجدانيا .

ولكن هذا الأمر على وضوحه يثير بعض التساؤل حين نتناول التشريع الإسلامي خاصة أو أي تشريع سماوي البنوع عامة . وقد يدركي هذا التساؤل ما يعرفه البعض من موقف بعض المذاهب الإسلامية ، كالظاهرية مثلا ، واستهجانها الرأي الذي هو ريب العقل استهجانا واسعا ، جريا وراء منهجهم في الاكتفاء بظاهر القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة .

ولكنني قبل أن أمضي في حديثي هذا أود أن أشير إلى أن مكتبة الفقه الإسلامي عبر العصور الإسلامية قد تضخمّت ونمت تضخما لافتا يفوق عددا من الجوانب الأخرى في المكتبة الإسلامية ، والتراث الإسلامي الواسع ، وما زال المسلمون يطمحون إلى أن تصبح مكتبة التشريع الإسلامي أو الفقه الإسلامي غنية بأخصب الوسائل الحديثة في تناول مشكلات المسلمين الحديثة تناولا لا يقل عن أوسع ألوان تناول الأخرى في عالم التشريع في النصف الثاني من القرن العشرين .

وما أراني في حاجة إلى الالتكاء كثيرا على إجماع المسلمين عبر عصورهم على بناء صرح الفقه أو التشريع لديهم بناء مطردا مستعنين في ذلك بعقول علمائهم ومجتهداتهم ، إذ أن مجرد الإشارة في هذا المجال تكفي فيما أحسب .

وقد يكون البعض قد ألم بشيء من خلاف العلماء والفقهاء المسلمين والمؤلفين في هذا المجال ، فرأي كثير من الآراء ، سواء مما هي على الجانب العقلي في التشريع أو مما هي مع هذا الجانب ، ولكن الأمر لا يعلو في نظري الحيوية القوية في البحث بها ، وهي من علامات العافية والصحة الموفورة في التفكير ، ولعل من أطرف هذه الآراء المتناقشة ما عرض له العالم المشهور ابن القيم (١) في كتابه «أعلام الموقعين عن رب العالمين» ، وكذلك ما عرض له الإمام الغزالي قبله في كتابه المشهور «المستصفى» وبخاصة في جزئه الثاني ، فقد عرض كل منهما لمناقشة الآراء حول الجانب العقلي في التشريع الإسلامي .

ويحسن أن نعلم على رأي من آراء ابن قيم الجوزية في كتابه

«أعلام الموقعين عن رب العالمين» في جانب العقل أو الاجتهاد ، وبخاصة إذا علمنا أن هذا الاجتهاد الذي يشير إليه ابن القيم كان لدى صحابة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، زمن الرسول نفسه ، أي زمن اتصال السماء بالأرض .. قال ابن القيم :

«وقد اجتهد الصحابة في زمن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، في كثير من الأحكام ولم يعنفهم ، كما أمرهم يوم الأحزاب أن يصلوا العصر في بني قريظة ، فاجتهد بعضهم وصلوها في الطريق وقال : لم يرد منا التأخير ، وإنما أراد سرعة النهوض ، فنظروا إلى المعنى .. واجتهد آخرون وأخروها إلى بني قريظة ، فصلوها ليلا - نظروا إلى اللفظ ، وهؤلاء سلف أهل الظاهر ، وأولئك سلف أصحاب المعاني والقياس » .

ولهذا النص الذي أوردته من كتاب ابن القيم المذكور أهمية في الدلالات لعل الصقها بحديثنا اليوم دلالة على ما أتيح للعقل أن يفعل فعله في فهم نص صريح في عبادة من أهم العبادات عند المسلمين . وقد أتيح للعقل هذا المجال في هذا الميدان ، وهو عقل صحابة رسول الله ، وهم يتحسسون التقاء السماء بالارض في وحى يوحى للنبي صلوات الله عليه بينهم .

ولقد ارتضى رسول الله ذلك من أصحابه .. والأمثلة موفورة على مثل هذا الموقف من المواقف التي اجتهد فيها صحابة رسول الله في زمنه .

وأحسب أن هذا الأمر الذي نعرفه من الناحية التاريخية الواقعية شيء طبيعي ، لأن الهدف من أي تشريع هو أن يفي بحاجات أصيلة تنبثق من أحوال أي مجتمع يثبت فيه ذلك التشريع . ولأن السماء في الدين الإسلامي على رعايتها البالغة لمجتمع المسلمين الناشئ زمن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، كانت تهدف إلى أن تربي المسلمين على يدي الرسول العظيم تربية مثمرة تستخرج كوامن الطاقة البشرية الصالحة فيهم . فجاء في ختام هذه التربية وقيل وفاة الرسول بإحدى وثمانين ليلة وفي يوم الحج الأكبر للسنة العاشرة من الهجرة أي في حجة الوداع في الآية الكريمة التي ختم بها القرآن الكريم : «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً» .

ولعل هذا الهدف هو الذي يسر على هذا المجتمع الإسلامي الناشئ زمن الرسول ، صلوات الله عليه ، فأنزل القرآن الكريم منجما وحسب الحوادث في مدة قدرها اثنان وعشرون سنة وشهران واثنان وعشرون يوما وهي من ليلة اليوم السابع عشر من رمضان

للسنة الحادية والأربعين من ميلاد الرسول ، عليه صلوات الله ، حيث أوحى إليه من غار حراء الذي كان يتحنث فيه أول ما أوحى :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » .

إلى تاسع ذي الحجة يوم الحج الأكبر للسنة العاشرة من الهجرة ، والثالثة والستين من ميلاد الرسول حيث أوحى إليه بآخر آية وهي التي ذكرناها آنفا « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

ولعل هذا اللون من التربية الكريمة لجماعة المسلمين الأولين زمن رسول الله هي التي أتاحت لهم احترام عقولهم واستقلالهم واحترام الجانب الإنساني فيهم وذلك بعد أن قامت هذه التربية الخصبة بأهم ما تعنى به أنماط التربية الأصلية . فقد عنيت السماء أول ما عنيت حين اتصلت بأرض الجزيرة عبر رسالة رسول الله ، صلوات الله عليه ، بالدعوة الفارقة ، أي بالفرقان الذي فرق بين عهدين متقابلين ، عهد ما قبل الرسالة المحمدية ، وعهد الرسالة ، ومن هنا ندرك أهمية دور مكة في الرسالة المحمدية ، وندرك كذلك أهميتها الحاسمة في شخصية التشريع الإسلامي ، فدور مكة هو الذي عمق القيم الإسلامية الرئيسية في نفوس أتباعه ، وهي القيم التي فرقت بين عهد الرسالة وبين العهد الجاهلي السابق لها ، لقد اهتم دور مكة باقتناع الذين جذبتهم الدعوة بالقيص من قيم الإسلام التي بدونها لا يكون المرء مسلماً ، اهتم بالتوحيد وبكل ما يتصل بالتوحيد من قيم ساطعة توضح أهمية الإيمان بالرسول بعد الله سبحانه ، وبالكتاب وبالحياة الآخرة ويوم القيامة وما فيه من حساب بالثوبة والعقوبة لينضبط بذلك سلوك المسلمين في حياتهم الدنيا . والافتقار في الدعوة في مكة أساس مهم من أسس احترام عقول الذين أنعم الله عليهم بنعمة الإسلام ، وكان هذا الافتقار يعني العناية الفائقة بالخطوط العريضة في دعوة الإسلام ، وفي هذا الذي يميز المسلم من غير المسلم في القيم . وقد أتاح هذا كله للمسلمين مناخاً عاماً من القيم التي يمكن الاعتماد عليها فيما بعد ، كي يميزوا بين ما كانوا هم أنفسهم عليه من قيم ، وما صاروا عليه بعد اسلامهم ، وكي يميزوا كذلك بين ما ينشئ مع روح اسلامهم وما هو من روح الوثنيين من حولهم .

وقد كان من الحكمة البالغة في القرآن أن يتأخر تناول التشريع المفصل أو ما هو كالمفصل في أمور المسلمين حتى صاروا في المدينة وهم يتمتعون بسمات الإسلام وقيمه ومميزاته ومناخه العام . فقد استقرت النفوس المسلمة على ما بلور شخصيتها ، وأخذت تحيا في المدينة حياة ذات سمات يمكن أن نطلق عليها سمات الدولة . ومن ثم انبثقت الحاجة إلى شرائع تفي بمطامح هذه الدولة الفتية في ضبط حياة أفرادها وفق قيم الدين الجديد .

وقد أدرك المسامون الأولون في هذه الدولة الناشئة زمن رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، أن الخط الكبير في أمور دينهم وهو ما يتصل بالتوحيد والعبادات قد تكفلت بتخطيطه السماء في الدعوة التي حملها النبي وبشر بها ، وأدرك المسلمون الأولون كذلك أن النبي ، صلوات الله عليه ، قد أخذ على عاتقه إتمام ما خططته السماء في هذا المجال ، سواء أكان هذا الإتمام بتفصيل ما أجمل أو بأكمال ما رآه النبي أنه يكمل تخطيط السماء ، أو بتوكيد ما ارتأى توكيده . ومن ثم أخذ رسول الله على عاتقه تعليم المسلمين كثيراً من عباداتهم تعليمًا عملياً . ولم يكن في هذا الخط الكبير الذي خططته السماء وأتمه النبي في مجال التوحيد والعبادات ما يتطلب من المسلمين الأولين غير الفهم في التطبيق والتنفيذ ، إذ لا مجال في ذلك للاجتهاد أو الرأي أو أعمال العقل في استنباط ، وقد فهم المسلمون المتأخرون عبر العصور التي تلت حياة رسول الله أن هذا الميدان ميدان معروف للتطبيق والتنفيذ متواتر بين المسلمين عبر أجيالهم ، ولا مجال فيه لاجتهاد ، ولا مجال فيه للبحث وراء تحليل أو وقوف على حكمة .

أمور الحياة الأخرى في المعاملات وهي ما هي عليه من تشعب فقد كانت هي المجال الفسيح للاجتهاد والرأي على اختلاف أشكاله وطرائقه ووسائله . فأمور الحياة أو المعاملات هي موضوع التشريع أو الفقه عند المسلمين .

ولعل احترام الإسلام للعقل البشري المتهدي إلى نوره هو الذي اعتمد كثيراً في جذب المسلمين للدعوة ، كما أشرنا من قبل ، على العقل بالافتقار ، ثم اكفى بشخصية المسلم المتشرب قيم الإسلام وروحه في مواجهة الحياة وأمورها . ولعل مثل هذه التربية السليمة هي التي طمنت السماء والرسول العظيم على سلوك المسلمين ومنطلقهم في المعاملة فلم تنزل تبعاً لذلك غير ما يقارب خمسمائة آية فقط من آيات الاحكام نزلت متفرقة بين آي القرآن الكريم . ولم يفرد لها مكان تشريعي خاص بها . إذ أن الشخصية التي اعتمدت الإسلام بالافتقار قادرة بهذه الأضواء الساطعة التي حوتها هذه الآيات القليلة نسبياً من آيات الاحكام ، وبرعاية من الرسول الأعظم وسنته على ضبط أمور حياتها مهما تشعب .

ونحن نعلم أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال لمعاذ بن جبل ، رضي الله عنه ، حين بعثه إلى اليمن قاضياً : بم تحكم ؟ قال : بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : فبسنن رسول الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيي . فقال النبي ، صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يوحى الله ورسوله » وروي أن النبي ، صلوات الله عليه ، قال لمعاذ وأبي موسى الأشعري ، وقد أفضدهما إلى اليمن : بم تقضيان ؟ فقالا : إن لم نجد الحكم في الكتاب ولا في السنة قسنا الأمر بالأمر ، فما كان أقرب إلى الحق عملنا به .

ونحن لا ندهش حين نرى صحابة رسول الله رضوان الله عليهم يدركون والسماء ترعاهم وتوحي للرسول بالقرآن الكريم ، والرسول نفسه يرعاهم ويتمهدهم بسنته كذلك إلى جانب القرآن الكريم ، نحن لا ندهش حين نرى كبار الصحابة هؤلاء يعلمون

أن الحياة أوسع من أن تحد جزئيات أحداثها وتحصر في حالات وقواعد بعينها ، ومن ثم نطمئن إلى هذا المنهج الذي سلكوه في حياة الرسول ، واستعانوا به حتى سلكوا على غرارته بعد وفاة الرسول . فإذا كان المسلمون قد لمسوا حاجتهم للرأي أو العقل والاجتهاد أو القياس في عهد كانت السماء متصلة بأرضهم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم ، لا يزال بين ظهرانيهم يسته فكيف بحاجة المسلمين بعد توقف السماء عن اتصالها بالأرض أي يوم توقف نزول الوحي وبعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ؟ وتوقف يتابع السنة وقد أخذت حياة المسلمين تتطور وتتعد في مضمار الحضارة ، ويلاقون من المشكلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية والثقافية وغيرها من أمور الحياة ، سواء أكان ذلك في دار هجرتهم وبلاد العرب أم كان ذلك في بلاد الفتوح الإسلامية ، ولدى اختلاطهم بالأمم والشعوب والثقافات والأحوال المختلفة في جميع ميادين الحياة لدى هذه الأمم والشعوب .

في إقرار كانت المجتمعات لا تثبت على حال واحدة بل تتغير بتغير الزمن والأحداث والظروف فإن من الطبيعي أن تتوقع مطامح الناس لتطور تشريعهم ، وتطلعهم إلى كل ما يفي بأغراضهم ومصالحهم ، وفق الأصول الاسمية المرنّة ذات البذور القادرة على النماء .

لقد أدرك الفقهاء المسلمون فكرة التطور في إنماء هذه الأحكام التشريعية بتطور حاجاتهم ، وفي هذا فصح المجال واسعا أمام العقل .

غير أنه يحسن بنا ألا ننسى أن المجال الواسع الذي أعطي للعقل في التشريع الإسلامي عبر العصور إنما أعطي له في رقعة المعاملات دون العبادات كما ألمحنا من قبل ، والعقل الذي ارتاح للإفادة منه عند المسلمين في تشريعهم إنما هو العقل الذي يدخل على الأحداث والقضايا والمشكلات مسلما ، ومن هنا كان ينظر بشيء من الريبة للعقل الذي يدخل إلى القضايا والحوادث والمشكلات دخولا مطلقا غير مقيد بأي من قيود المسلمين ، ومن هنا كذلك كانت بعض التيارات الإسلامية تناهض الفلسفة المحضة التي تريد أن تتناول القضايا والحوادث والمشكلات في المجتمع الإسلامي تناولا فلسفيا غير متقيد بأي من قيود يطلبها الفقهاء من المسلمين ، ومن ثم كان هناك بون واسع بين منهج الفلاسفة ومنهج الفقهاء . ولهذا كله كان منهج الفقهاء ينحصر في استخراج الأحكام والشرائع من النصوص التشريعية في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، ومن أدلة شرعية أخرى ، وقد اعتبر الفقهاء نصوص القرآن التشريعية ونصوص السنة التشريعية والأدلة الأخرى التشريعية مصادر التشريع في المجتمعات الإسلامية .

ومن هنا كانت يتابع التشريع عند الفقهاء المسلمين أربعة قابلة لأن تتفرع وهذه المتابع كما أشرنا قبل قليل هي الكتاب ، والسنة ، والقياس ، والإجماع .

وقد يتبادر للأذهان أن ليس في المصدرين الأول والثاني وهما الكتاب والسنة مجال للعقل .

ولكن من يتدبر الأمر يجد أن في هذين المصدرين مجالا واسعا . فنحن نعلم أن الله سبحانه لحكمة بالغة لم ينص على كل أحكامه في مواد تشريعية جامعة ، بل نص على أحكام بعض الوقائع بنصوص في القرآن أو على لسان رسوله ، وسكت عن النص على أحكام أكثر الوقائع ولكنه مع ذلك أوجد إشارات عليها ومهد طرقا توصل إليها ، ليتوصل إليها المجتهدون باجتهادهم . والمواقعة التي دل على حكمها نص قطعي في وروده ، وقطعي في دلالة ، بمعنى أنه لا مجال للعقل أن يدرك منه إلا حكما بعينه ، والواجب اتباع حكم النص فيها بعينه . فلا مجال للاجتهاد في أن إقامة الصلاة فريضة .

واللهزل
اشتهر قول الأصوليين : « لا صاغ للاجتهاد فيما فيه نص قطعي صريح » . أما الواقعة التي دل على حكمها نص ظني الدلالة ، بمعنى أن النص يحتمل الدلالة على حكمين أو أكثر ففيها اجتهاد ، ولكنه اجتهاد في حدود فهم المراد من النص ، وترجيح أحد المعاني ، كما في قوله تعالى : « واستمعوا لبرؤوسكم » إذ يحتمل أن تكون الباء للاتصاق ، فالمفروض مسح الرأس كله ، وأن تكون الباء للتبعض ، فالمفروض مسح بعض الرأس لا كله .

والواقعة التي لم يدل على حكمها نص ، ولكن اتفق المجتهدون على حكم فيها ، في عصر من العصور الإسلامية ، لا مجال للاجتهاد فيها كذلك . غير أنه يحسن ألا يغيب عن بالنا أن اتفاق المجتهدين لا بد أنه قد سبقه اجتهاد . ولذا كان من الحكمة ألا ينقص اجتهاد مجموعة من ألوان الاجتهاد التي اتفقت ذات يوم ، وإن كان هذا الأمر والحق يقال - غير مثبت فيه بتا حاسما بين فقهاء المسلمين .

أما الواقعة التي لم يدل على حكمها نص ، ولم ينعقد على حكمها إجماع ففيها مجال الاجتهاد بالرأي . وهي في كل زمن وفي أية بيئة مجال للاجتهاد في أهل الاجتهاد ، ولا يمنع اجتهاد فيها سابق من اجتهاد لاحق .

ولعل من خير ما يدل على ما نحن بصده ما روي من أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لقي رجلا فسأله « من أين جئت ؟ فقال الرجل من عند علي ، وقد قضى بيننا بكذا في خصومة هي كذا ، فقال عمر : لو كنت أنا الذي يقضي فيها لقضيت فيها بخلاف هذا القضاء . فقال الرجل لعمر : وما يمنحك وأنت أمير المؤمنين ؟ قال عمر : لو كنت اردك إلى كتاب الله أو سنة رسوله لفعلت ، ولكني اردك إلى رأيي ، والرأي مشترك » .

والذي يتبع مختلف المؤلفات التشريعية في الفقه الإسلامي يلاحظ أن طبيعة النصوص التشريعية في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة فيها من المرونة ما أتاحت للعقول المتطورة والمختلفة أن تتناول هذه النصوص في سعة تناولا عرفه الأجداد في المنطوق وفي المفهوم معا . أما منطوق النصوص فقد قسموا الدلالة فيه إلى دلالة عبارة ، ودلالة إشارة ، وأما مفهوم النصوص فقد قسموه إلى مفهوم موافق ، ومفهوم مخالف .

وبذلك أتاحت النصوص المرونة للعقل في هذه الدلالات الأربع ، بحيث يثمر ثمرات ملموسة حتى فيما هو ثابت .

قال الله تعالى في سورة البقرة في بيان من تجب عليه نفقة الوالدات المرضعات : « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف » فأستدل بعبارة هذه الآية على حكم ، وهو نفقة الوالدات والمرضعات تجب على والد أولادهن ، وأستدل بإشارتها على حكم ثان ، وهو نفقة الأولاد على أبيهم وحده لا تشاركه فيه أمهم ولا غيرها . وهذا الحكم يشير إليه تعبير الآية بأنهم مولودون له ، أي هو مختص بهم . وأستدل بمفهوم موافقتها على حكم ثالث ، وهو أن أجر علاج الوالدات وضمن أدويتهم على والد أولادهن ، لأن حاجة الوالدة إلى العلاج والأدوية أشد من حاجتها إلى طعامها وكسوتها ، وهو إنما وجب عليه طعامها وكسوتها سدا لحاجتها .

وهكذا نرى أن طبيعة النصوص على ثباتها لم تحل دون انطلاق العقل فيها فإذا أضفنا إلى هذا ما يتصل بالنصوص مما قد ألمحنا إليه فيما سبق من حديث وبأخصه هذا الجانب الذي يتناول معاملات الناس في مجتمعاتهم من النصوص التشريعية . فإن هذا الجانب مصبوغ ببسطة عامة وتخطيط عريض . ولذلك تلخلت الأحوال المتطورة والمصالح المتطورة والعقول المتطورة في هذا الميدان فطورت التشريع أو هذا الجانب من التشريع .

قد وقفنا وقفة فيها شيء من الثاني عند المجال الذي وجده العقل في النصوص التشريعية ، لأن هذا المجال مظنة التساؤل فيما يتبادر للأذهان .

أما الصلة التي ربطت بين واقع الحياة والأحكام التشريعية عند المسلمين فقد فتحت باب القياس على مصراعيه ، والقياس هو المجال الفسيح للعقل ونشاطه .

وللقياس أشكال مختلفة جالت فيها عقول الفقهاء على ميولهم في هذا النشاط . وقد أحس الفقهاء بحقيقة تكاد تكون من أوضح البداهة في حياة المجتمعات وهي أن حوادث الحياة أوسع من الأحكام المنصوص عليها في التشريع وغير المنصوص عليها كذلك . فازاء القضايا التشريعية الجديدة التي لم يكن فيها أحكام نصية في القرآن الكريم ولا في السنة ولم يكن فيها إجماع لذلك ، اضطرت الفقهاء إلى تحكيم العقل ، وإعمال الرأي والمنطق لحل هذه القضايا الجديدة بالاجتهاد والقياس أي قياس واقعة جديدة على واقعة قديمة وقد اعتمد الفقهاء في القياس على أساس كبير في التشريع الإسلامي هو أن الأحكام الشرعية مبنية على مقاصد ومصالح ، وهذه المقاصد والمصالح هي السبب في وجود هذه الأحكام فكان الفقهاء بمعرفتهم علة حكم منصوص عليه في مسألة من المسائل يقيسون مسألة أخرى على السابقة إذا كان في إمكانهم توضيح انهما متصفان في العلة .

فقتل الوارث مورثه مانع من الإرث بالحدديث الشريف ، لا يرث القاتل ، وقيس به قتل الموصي له للموصى ، وقتل الموقوف عليه للواقف ، لتساويها في أن القتل مظنة استعجال الشيء قبل أوانه ، والانتفاع بالإجرام وقد تفرع القياس لدى بعض المذاهب السنية ، فعند الحنفية والمالكية والحنابلة إلى فرع آخر من فروع القياس

أطلقوا عليه الاستحسان وخلاصته في إصلاح الأصوليين القائلين به : العدول من حكم اقتضاه دليل شرعي في واقعة إلى حكم آخر فيها لدليل شرعي اقتضى هذا العدول ، وهذا الدليل الشرعي الذي اقتضى العدول هو سند الاستحسان .

وإذن فالاستحسان هو ترجيح دليل على دليل يعارضه بمرجح معتبر شرعا .

ومن أمثله : قال فقهاء الحنفية مثلا .. وإن حقوق الري والصرف والمرور لا تدخل ووقف الأرض الزراعية تبعا ، بدون ذكرها قياسا ، وتدخل استحسانا . وذلك لأن القياس الظاهر هو قياس الوقف على البيع ، بجامع أن البيع يخرج المبيع من ملك البائع ، والوقف يخرج الموقوف من ملك الواقف وفي بيع الأرض الزراعية لا تدخل حقوق ربيها وصرفها والمرور إليها بدون ذكرها ، فكذلك في وقفها . لكن القياس الخفي قياس الوقف على إجارة بجامع أن المقصود لكل منهما الانتفاع ببيع العين لا تملك رقبته . وفي إجارة الأرض الزراعية تدخل حقوق ربيها وصرفها والمرور بدون ذكرها ، فكذلك في وقفها .

وهذا العدول عن مقتضى القياس الظاهر إلى مقتضى القياس الخفي هو الاستحسان ووجهه أي الدليل الذي نبني عليه هذا العدول ، هو أن المقصود من الوقف هو انتفاع الموقوف عليه ببيع الموقوف لا تملك رقبته . والانتفاع ببيع الأرض الزراعية لا يتحقق إلا بريها وصرفها والمرور إليها فالقياس الذي يقتضي دخول هذه الحقوق في وقفها بدون ذكرها أقوى أثرا وأرجح من ناحية أن يحقق المقصود من الوقف .

وهناك لون آخر من القياس استطاعت عقول بعض الفقهاء أن تجد فيه مجالا خصبا للعمل ، وهو الاستصلاح . وهو في عرف الأصوليين تشريع الحكم في واقعة لم يرد فيها نص ولا إجماع .

ويعتمد الاستصلاح على مراعاة مصلحة مرسله أي مطلقة ، بمعنى أنها مصلحة لم يرد عن الشارع دليل لاعتبارها أو لإلغائها .

ولفون فالأصل في هذا المصدر التشريعي يقوم على مصالح الناس . فقد اتفق الأئمة في المذاهب المختلفة على أن الأصل في قسم العبادات هو التعبد بمقتضى أوامر الشريعة الإسلامية وأن أحكام العبادات معروفة بأدلة الشرع واففقوا أيضا ، ماعدا الظاهرية ، على أن قسم المعاملات معقول المعنى ، وأنه مبني على مصالح الناس ومنافعهم ومع ذلك نجد الإمام الشافعي لا يأخذ بالاستصلاح ، ولا بالاستحسان ، وكذلك الغزالي يرفض الأخذ بالاستصلاح ، ولكن المالكية والحنابلة يأخذون به ، وكذلك الحنفية في رأي بعض الباحثين .

والمصالح إذا بين الشرع بالنص أو بالإجماع أو بالقياس اعتبارها أو بطلانها وجب اتباعه ، ولكنه إذا سكنت عنها ، أمكن الفقهاء أن يتخذوا التعليل بالمصلحة دليلا من الأدلة الشرعية . وقد قال بجواز ذلك الإمام مالك ، وأسمى هذا الدليل المصالح المرسله . ومن أمثلة الاستصلاح جمع الصحابة القرآن في مصحف واحد ، وتدوين اللواوين □



اليد السفلى

تأليف: د. محمد عبد الحليم
مراجعة: بكر عبد الحليم / الزهران

المرحلة الابتدائية ، وبعدها ألحقه بالمدرسة الثانوية ليدرس نهارا ويؤدي أعماله المنزلية ليلا . وما أن اجتاز المرحلة الثانوية حتى دبر له بعثة لدراسة الطب في القاهرة حيث بقي سبع سنوات لا يفكر في قضاء عطلة واحدة في وطنه لأنه « وحب نفسه كليا للدراسة والتحصيل » . وقد تهيّج في نفسه بين الحين والحين عاطفة نحو عزيزة ابنة الشيخ عبد الحميد فيكتبها وفاء له ويأسا من تحقيق حلم يعده بعيدا . وفي تلك السنوات السبع قضى الشيخ عبد الحميد وزوجته الفاضلة نحبهما . وما أن سمع بوفاة الشيخ حتى قرر العودة ليكون بجانب الأسرة في محنتها ، فوجد عزيزة في المستشفى تكابد داء أعى

من ضمن هذه المجموعة قصتين طويلتين : الأولى « اليد السفلى » والثانية « مشرد بلا خطيئة » . وكان يمكن أن تنشر كل منهما في كتاب على حدة . فلماذا اختار المؤلف أن يجمعهما في كتاب واحد ؟ هذا سؤال سأحاول الإجابة عنه فيما بعد . أما القصة الأولى فهي عن طفل نقله أبوه من قرية صغيرة ليعمل أجيرا في مكة المكرمة عله يكون عوناً لأسرته في معاشها . وبعد بداية غير موفقة انتقل للخدمة في بيت شيخ سبب الحميد . وهو رجل ضيق صالِح ترقزق العصافير على أشجاره ويختلف طلاب العلم إلى بيته . فأحسن معاملته وألحقه بمدرسة ليلية حتى اجتاز

الطبيب دواؤه ، كما أعطيت قديما علة عروة بن حزام عراف اليمامة وعراف نجد . وأخيرا يعلم أن وجدها به كوجده بها ويتزوجان ، وتعود الأطياف تزقزق في حديقة بيت الشيخ عبد الحميد ويعود طلبة العلم ينتجعونه كما كانوا أيام صاحبه الأول .

ولابد أن القارئ يلحظ شبهها - رغم التفاوت - بين « اليد السفلى » و « ثمن التضحية » بعد ابتعاث البطلين إلى القاهرة . فكلاهما اسمه أحمد ويتبعث إلى القاهرة لدراسة الطب ، وكلاهما ينهمك في دراسته ليتخرج في أقصر مدة . وكلاهما يثور في نفسه صراع عاطفي يخمده بالتعقل والمنطق ، وكلاهما يموت والد محبوبته وهو في المرحلة الأخيرة من دراسته ، وكلاهما يعود ليجد المحبوبة المعلقة أو المكتومة مسجاة على فراش المرض فيكون مجيئه الدواء الشافي من الصدمة النفسية ، ومن بعدها ينتهي وزوجه إلى السعادة التي أملها طوال حياته .

وهناك عنصر آخر من التشابه بين القصتين ، ولعله أقوى من تماثل الأحداث ، وهو ما أسميته في قصة الدمنهوري « غيبة الصراع » (١) ، وإن اختلفت الأسباب والدوافع . فالدمنهوري يصور تغيرا في بنية المجتمع ، ولكنه يأتي هونا وبخطى وثيدة ثابتة ، فيتلقاها المتخوفون منه بالرضى والقبول . وبطل « اليد السفلى » يصعد السلم بخطوات ثابتة لا تعثر فيها ولا خشية عليه فيها من سقوط . وقصته حكاية فرد بدأ من أسفل السلم فكان لكل خطوة خطاها ثمرتها العاجلة حتى وصل القمة فوجد الثمر طيبا ووفيرا . أما ما ثار في نفسه من « صراع » لكونه « يداً سفلى » وعزيزة « يداً عليا » فهو قائم على مغالطة ووهم ، ولا بد للمغالطة من أن تصحح ولا بد للوهم أن ينجلي . ومن ثم فإن القارئ لا يخشى عليه من هذا الصراع لأنه يدرك النهاية قبل حلولها . ويزيد من الاطمئنان عليه كونه اختار لوصف حالته أنه « يد سفلى » وهي عبارة سلخها من سياقها في الحديث الشريف « اليد العليا خير من اليد السفلى » ، واليد العليا المنفقة واليد السفلى السائلة » ، وحملها على غير مدلولها فيه ربما لأن معظم روايات الحديث تقف عند

« اليد العليا خير من اليد السفلى » فأصبحت المغالطة واضحة سهلة التصحيح . فهو إنما كان يعمل في بيت الشيخ عبد الحميد ويأكل من كسب يده ، « وما أكل أحد طعاما قط خيرا من كسب يده » . ومن هنا لم تجد دأده جمعة صعوبة في تبديد وهمه ، فبينت له أن اليد السفلى هي الذين يسألون الناس الخافا ، وأن النبي ، عليه السلام ، كان يعمل لخديجة رضي الله عنها ثم تزوجها . أما كيف فأتت هذه الحقائق على الشاب المتعلم وادركتها دأده جمعة فأمر لا أعلق عليه . ولو أنه اختار بدلا من ذلك مفهوم الأجير والسيد لكان الحل أصعب ، أو لو أن عزيزة هي التي ابتدأت من هذا المنطلق لكان الأمر عسيرا أو مستغلقا ، ولاتجهت القصة وجهة أخرى . صحيح أن الإسلام ينكر هذا المفهوم الطبقي ولا يقبله ، وأن لنا أسوة حسنة في رسول الله وخديجه ، وفي زيد بن حارثة وزينب بنت جحش ، ولكن قد تتدخل هنا جاهلية الطبقة وتطغى على ما سواها لأنها لا تخضع للمنطق السليم ولا تفهم قيما أعلى من قيمها . غير أن هذا كان يمكن أن يدخل صراعا إلى القصة تكون نهايته حلا لمشكلة اجتماعية . وأنا لا أقول لكاتب كيف يكتب ، ولا شأن لي بذلك . والكاتب هنا لم يهدف إلى شيء من هذا ولا هو من غايته . فهو إنما يكتب قصة ذات مغزى واضح لهداية الشباب بعامه ، وهو أن من يكافح مخلصا يدرك ثمرة كفاحه . وأن العلم خير سبيل للارتقاء في سلم الحياة وبه تمحى الفوارق الاجتماعية . فالقصة حدث على طلب العلم والعمل الدائب من أجله والصبر على متطلباته . فإذا اجتمع العلم والخلق الحسن ، وصلا بالمرء غاية ما تمنى .

ولذا كان المؤلف قد هون الأمر على بطله ، ولم يضع في سبيله أية عقبة أو صعوبة - سوى ما توهمه عن وضعه الاجتماعي - فانه يريد أن يقول أن الباب مفتوح أمام كل طارق . ولذلك لم يوقفه قط موقفا يضطر فيه إلى النظر وراءه أو تمثل الصعاب أمامه لئلا يتساءل - أو يتساءل غيره - إن كان الهدف الذي يسعى إليه يوازي ما واجهه أو سيواجهه من أجله . انها معادلة بسيطة المعطيات واضحة النتيجة . ومثل هذا الموضوع في هذا الإطار ألصق بالقصة القصيرة منه بقصة في

مثل هذا الطول . وقد صرح المؤلف أنها في الأصل قصة قصيرة نشرت في مجلة «الإذاعة» ، ولعل هذا مما جعله يجمعها إلى القصة الأخيرة في كتاب يسميه «مجموعة قصصية» .

الرسالة القصة الثانية «مشرد بلا خطيئة» فتصور محنة الشعب الفلسطيني في العشرين عاما الأولى منها ، أي في مطلع عام ١٩٤٨ إلى معركة الكرامة في مارس ١٩٦٨ .. قتال ونزوح ونزوح وفتال . ولست أجد لوصفها خيرا مما قاله الكاتب في مقدمته : «... استوحيتها من واقع الألم التاريخي الذي ليس له مثيل ، ذلك الذي عاناه - ويعانيه - اخواننا الفلسطينيون ، منذ أن بدأت أقسى جريمة التهجير - تناولت شعبا بأكمله - إلى أن وجد هذا الشعب نفسه مرغما على أن يحمل البندقية ويدافع عن قضيتة بنفسه ، على النحو الذي نعرفه ونعايشه .. مهمتي إذن كانت هي جمع تلك القطع المتناثرة من اللوحة الأصلية وإعادة تشكيلها في قالب جديد ، فأخذت من الحقيقة وقائعها التاريخية الثابتة ومن الخيال آفاقه التي تشكل الإطار الذي أردته لهذه اللوحة» .

لقد اختار الكاتب قرية عين كارم القريبة من القدس منطلقا لقصته . وتتبع استماتة رجالها في الدفاع عنها . ونزوح نساها وأطفالها إلى القدس فأريحا فعمان ، متحملين شطف العيش وقسوة الحياة ومرارة الغربة وأوجاع الحنين ، ولكنهم لا يطرحون حلم العودة ، وكلما تضاعف في نفوس الكبار بأفول شمس العمر ثار في الصغار أقوى وأعتى بيزوغ عمر جديد . ولذلك فانهم يكدحون كدح المتشبث بالبقاء ، ويعلمون أولادهم ليكونوا أقدر على مواجهة الحياة . وليكتسبوا القدرة على الوقوف في وجه تياراتها التي لا تنفك تعصف بهم من كل جانب . حتى إذا جاءت معركة الكرامة أصبح على الشاب منهم أن يعمل ليعيش ، وأن يتعلم لبلوغ مستوى أفضل ، وأن يقاتل دفاعا عن حياته وحقه . انه كفاح مستميت في جهات ثلاث كلها لا ترحم .

والمؤلف يصرح بأن شخصياته نماذج لا غير . غير أن هذه النماذج - لا كما يكون النموذج عادة - مليئة بالحياة والحركة والواقعية ، والقصة تعطي - كما أرادها المؤلف - صورة جد واقعية للقضية الفلسطينية بعناصرها

الموجبة والسالبة في أسلوب شيق وتفاعل دينامي نشيط . فهي في مجموعها استعادة للواقع في إطار قصصي مثير . حتى أن القارئ لا يشك في أنه يقرأ عن أحداث وقعت وشخصيات عاشت . ولعل أكثر ما يثير الإعجاب هو نموذج الأم الفلسطينية . فأم إبراهيم نزحت بوليدها من عين كارم وراحت تنتقل به بين المغاور والخيام في هذه البلدة أو تلك طلبا لنجاته ، وانتهى بها المطاف - وهي السيدة العزيزة في بيتها - خادمة في عمان ليطعم وليدها اليتيم ويتعلم ، وهي لا تطيق فراقه ، وكلما غاب انخلع قلبها خوفا عليه . فلما كانت معركة الكرامة جاء يخبرها أنه ذاهب للقتال ، فما زادت على أن قالت : «وماذا تنتظر يا بني ؟» كما حمدت الله في القديم امرأة عربية على أن شرفها باستشهاد بنينا الأربعة . لقد أعجبت بالقصة وقرأتها بتأثر شديد . ومن السهل أن أنثر بضع ملحوظات حول فنية القصة لأوهم القارئ بالموضوعية . غير أنني يجب أن أصارح القارئ بأن الموضوعية في مثل هذا المجال خلة لا أدعيها ولا أطلبها . ومن كان يروحها مني ، فلإنما يكلفني شططا ويحملني ما لا قبل لي به ولا هو من مقتضيات الموقف . وإنما أقابل صنع المؤلف وقد أجاد - بل صنيعه بالشكر والعرفان .

الرسالة لماذا اختار المؤلف أن يجمع هاتين القصتين في كتاب واحد فقد منح إليه المؤلف نفسه . وقد سبق أن ذكرت أن القصة الأولى لا تقف وحدها كقصة طويلة أو رواية وانها رغم طولها تظل ألصق بالقصة القصيرة . ثم أن «اليد السفلى» قصة شاب سعودي يخرج من اسار وضعه في السلم الاجتماعي بكفاحه في طلب العلم ليبلغ به حياة أفضل . وإبراهيم في القصة الثانية طفل فلسطيني تربى في الغربة ، وله غاية وأمل .. غايته الحياة الأفضل وأمله أن يستعيد حقه . وبالعلم يبلغ غايته وبالبندقية يحقق أمله . وبعبارة أخرى فإن كلا منهما يسعى إلى غاية واضحة والطريق إليها واضح ، فعليه أن يكافح على الطريق الواضح على ما فيه من أشواك وعقبات ، وألا يسمح لأية عوامل أخرى بأن تشنيه عن مبتغاه . فالقصتان لهما مغزى يكاد يكون واحدا ، وهما أمثلة للشباب العربي في أي بلد كان □

ليلة السقوط في الأزمة

بقلم: الدكتور محمد علي قريش / حمرة

عرقه يتصبب على وجهه وعنقه،
أنفاسه المتلاحقة في لث
وخوف .. تلهب الجو القاتم !
النسمات مخنوقة كأنها بخار
ماء .. يستشفقه في حمام
تركي .. رطوبة تحسها
بلزوجة وقرف على وجهه
ويديه .

الموقف : أحاسيس بليدة ، وأعصاب
تتهالك مع فظاعة الحدث .
تمنى لو يكون الأمر مجرد
حلم يوشك أن يستيقظ منه .
يمضي الوقت رتيباً !! والحدث
لا زال ماثلاً أمام عينيه ..
يتجسد في خياله كسيناريو
فيلم مثير .. أغمض عينيه .
خطواته ثقيلة . يوشك أن
يخر .. جاثياً على ركبته .
قدماء تسوخان كما لو كان
يشق طريقه وسط كثبان رملية .
انه خائف ، يترقب شيئاً ما .

.. انطلقت صافرة أحد العسس —

حرّاس الليل — في مكان ليس ببعيد .
انشق بصوتها ذلك الأزيز الموحش .
جمدت أطرافه . التصق بجسده المتهالك
ويديه المرتجفتين في الحائط الذي خلفه .
ابتلع في قهر ريقه الجاف . رائحة
طينية تعشت بها أنفاسه ، كانت
رائحة الحجارة الآجورية التي تجدد
عليها . وطفق في مكانه يلهث لهاثاً
مرجفا .

تلاشت في نفسه أوهام كثيرة حين

اندس بكامل جسده خلف باب داره .
انتفض رغم طمأنينته .. فقد تخيل

والهابط يهتز لها ويرتجف .
احساس يباغته من حين لآخر
بأنه سيسقط عند قدمه .
أصدر ثوبه المسربل على
جسده النحيل ، حفيفاً
متماوجاً .. حين لامس
أغصان شجرة النيم المنتصبة
في وسط الرصيف . تموسقت
الأصوات في داخله . فغاص
في كابوس بغض .

الزمن : ليلة من ليالي الجوزاء . انها
أشأم من داحس وبراقش !

.. الطريق خالية !!
رطوبة لزجة .. أحس معها باختناق
شديد . ليلة موحشة !
سار على رصيف الطريق ناكب الخطى ..
يتلفت حوله بحذر . كأنه يرقب شيئاً !
.. حدث فظيع ! يا لها من ليلة أشأم
من داحس .

الصوت : أزيز متقطع .. يكسر هدأة
الليل في وحشة . صمت عرييد
يخضع له كل شيء . دقائق
قلبه المتعاقبة مسموعة لديه
بجلاء .. صدره الصاعد



اللحظة بكل تفاصيلها . القطعة الخشبية الملوثة بالدم والجثة الآدمية !

.. زاد التنافسه .. حين تفجر الصمت المعربد .. بصوت محشرج : « أين كنت ؟! قلت انك ستعود مبكرا . أبطأت في العودة » !

« عدت مبكرا . مكثت في الردهة طويلا » .. وصمت ! ثم استجمع لهاث انفاسه وقال :

« ... فقط تشوقت نفسي لسيجارة .. فضلت قطع أنفاسها خارج الغرفة .. كي لا أزعجك ... »

« أحسنت . الآن أدخل إلى فراشك . الوقت متأخر . النوم أفضل لك من التدخين الذي أهدأ به صدرك » قالت جملتها الأخيرة في صوت خفيض .. يكاد لا يسمع !!

.. خلع عن جسمه المتهالك ملابسه ، بيدنين مرتجفتين . لا بد من إخفاء الثوب خشية أن تكون هناك بقعة دم علقّت به . الموت يتجسد أمامه . التفكير والخوف .. لا يوقفان أمواج الشر التي تدهام لحظاته . أحاسيسه مغتالة . وما حدث قد حدث .

.. ليت الأمر كما قال لأمه . لن يكون أي شيء يحدث . أفضع مما حدث لصاحبه .. وما سيحدث له .

.. قصيرة هي الحياة مهما طال مشوارها . وتصبح تافهة في عيون الذين افتقدوا الأمل وابتاتوا يعيشون على حافة جرف هار . لكنه يصارع حتى آخر ثانية تبقي في روحه رمق الحياة . تمنى لو يعود الزمن إلى الوراء . لو تعود عقارب الساعة وبضع الساعة . لالتزم الحلم .. وضبط الأعصاب . لو أنه

عالج الأمر بغير ما أقدم عليه . ويا لفضاعة ما أقدم على فعله . لأصبح في حال غير الذي هو فيه الآن .

.. التفكير في اخذت هاجس كبير .. ! والأمر كابوس يشل حركته .

كان يعلم أن صاحبه لم يرد تحديه . بل أراد اهانتته . وإلا لما أقدم على منافسته في أمر يفديه بحياته . فهو يعلم أنه و « دعد » يعيشان قصة حب طويلة . ويعلم أنهما قد تعاهدا على أن يكونا حبيبين مدى حياتهما . لكنه أراد أن يحرمه ذلك الحب الذي شغف به قلبه . بل هو لم يؤمن بجمال الدنيا حتى رأى جمال عينيها وصفاء قلبها ، لكن صاحبه ضن عليه بذلك الأمل الذي يعيش به ومن أجله .

منذ أن كان - هو وصاحبه - على مقاعد الدراسة ، والتنافس بينهما شديد . كان هو على درجة من الذكاء نال به حظا وافرا من التقدم المستمر في دراسته . بينما كان صاحبه متخذا عنه ولا يحقق نجاحه سوى في مسابقات الألعاب الرياضية التي كان هو لا يميل إليها .

.. أنانية بشعة تتحكم في سلوك صاحبه . إذ لا يحلو له إلا الأشياء التي يمتلكها غيره .. ويسعى لامتلاكها حتى وإن كان راغبا عنها . لكنه يريد اشباع غرائزه الشاذة المفقوتة .

وقد تحداه .. في « دعد » .. في أغلى شيء يمتلكه .. وقد أراد بذلك اهانتته .. لكنه لم يتصور أن ينتهي الأمر إلى ما انتهى إليه .

.. تحطمت نفسه .. وأدرك أنه مهزوم وإن بدا قويا . فقد استغل صاحبه نقطة ضعف والد « دعد » .. واستماله إليه بما حظي من ثروة ورثها عن أبيه . وأصبح ذا كلمة ونفوذ عنده .

.. لكنه لم يرد الوقوف .. فاقتدا الحيلة وتبذير الأمر . ولن يتخلى عن « دعد » ولو كلفه الأمر حياته . ولما كان .. صاحبه عنيدا .. ولا يحمل في قلبه سوى الحقد والضغينة .. أيقن أن النقاش الهادئ والحوار المنطقي قد يحقق ما لم تحققه المناقشة .

عقد العزم على اقامة ذلك الحوار . واحتواء الأمر بعقلانية وحكمة !

بكت « دعد » .. للموقف الذي يتف فيه حبيبها . فهو يعيش بين خصمين أبوها وصاحبه .

.. وفي هذه الليلة الكثيرة . دار الحوار بينه وبين صاحبه في « فيلته » الخاصة التي يعيش فيها وحيدا . وتحدث إليه بلا تعصب . كان يريد أن يشفيه عن رغبته في ازواج من دعد لأنها حبيبته . إذ كيف يخطب ود من لا تكن له ذرة من الود . لكنه فاجأه بصراحة . أفضى إليه بكل ما يعمل في صدره من رغبات محرمة .. ونوايا سيئة . فاصراه على خطبة « دعد » لم يكن حبا فيها .. وإنما إذلالا له . ولم تكن « دعد » سوى شيء من الأشياء التي يملكها غيره ويريد انتزاعها من بين يدي مالكتها .

فكر مليا .. لا جدوى من صراع يعلم أنه الخاسر فيه . انه يقف أمام

انسان شاذ .. لا يحد غروره إلا الحزم .

.. تحدثا وتحاورا طويلا .. وبدا صاحبه واثقا من أن الأمور تسير في صالحه ، وخصمه مهزوم مدحور . اتسعت ابتسامة النصر في صفحة وجهه الداكن .. واتسعت شقة الخلاف .

.. لقد تطبع بخصال تراكت مؤثراتها السيئة في ماضي حياته . فجعلته انسانا غير سوي .

.. مضت الساعة طويلة مملة .. وصاحبه لم يتغير موقفه في شيء . كان متصلبا .. فظا غليظ القلب ..

« أنا لا أحبها .. من قال اني أخضع هواي لامرأة ؟! انها لا تستحق سوى اللعنة ! لكنك لن تنال دعدا قبلي » قالها صاحبه .. وفي عينيه بريق يعرفه منذ كانا تلميذين .. ! الحقد الذي في قلبه جعل منه انسانا غريب الأطوار ، لم يشك قط في أنه رجل مريض . قال له وكأنه يشفق على حاله :

« لن يفيدك هذا بشيء . انك تسلك سلوكا ، تصبح به ممقوتا لدى الناس .. » ، قاطعه صاحبه قائلا :

« منطق الضعفاء . أنت ضعيف بمعنى الكلمة . أنا اليوم أقوى وأقدر منك ! وسأكون كريما معك .. فأنا لا أنسى أننا كنا رفقاء . سأطلقها ، وسأتركها لك بعد أن أشعر بالانتصار » .

.. لم يتمالك نفسه . استفزه بالقدر الذي أفرغ ما في صدره من حلم وصبر . غامت الدنيا في عينيه . نسي كل شيء

حوله .. وتذكر أنه أمام مخلوق لا يحمل من هوية الانسان إلا شكله . هاجت أعصابه .. وتحرك بشكل سريع ، وبانفعال تناول قطعة خشبية كانت ترين الطاولة البلورية التي أمامه . لحظات وانهوت على رأس صاحبه . سقط بالقرب منه . الدم ينزف من غادة رأسه .. ! زاغت عيناه في كل ناحية وصوب ..

— القطعة الخشبية التي تأخذ شكل قارب شراعي .. تهتز على المقعد ، وقد تلوثت بالدم مقدمتها .

.. جسد صاحبه ينتفض انتفاضة الشاة الذبيحة .

جثا على ركبتيه ، وتلمس يديين مرتجتين صدغيه . بدا هلوعا .. لم يقف موقفا صعبا كهذا . اللحظة تصعقه .

.. خيم سكون موحش . استفاق من هول المصيبة . زحف ليطفيء الأنوار ، واتجه نحو النافذة ، أخرج منها نصفه العلوي وتأكد من أن الطريق خالية .لقى بنفسه خارجا .. ولاذ بالفرار .

.. الدم يلوث يده .. ! فكر في « دعد » . تصور كيف يكون غده ، لقد قتل صاحبه . لن يكون أي شيء يحدث أفضح مما حدث لصاحبه .. وما سيحدث له .

كان الثوب لازال عالقا بعنقه . انتفض انتفاضة غريبة .. بعد أن افتقد « طاقيته » .. ليلة أشأم من داحس !! لقد سقطت منه حتما في موقع الجريمة . ستكون دليلا يدمنغ التهمة عليه . لقد

وقع في مأزق آخر . ذهابه إلى هناك مرة أخرى يشكل خطرا عليه . لا بد أنهم اكتشفوا جثة صاحبه .. ويبحثون عن الجاني . كيف يذهب إليهم بقدميه ؟!

.. هدوء موحش . الصمت يستولى على كل شيء . لم يكشف الأمر بعد . النافذة التي هرب منها لازالت على فرجتها . تراجع قبل أن يقفز من خلالها . تذكر أن الخلاص لا يأتي مرتين . لكن « طاقيته » دليل على اتهامه .. ولا بد من إزالة هذا الدليل . ألا يكفي أن الجميع على علم بقصة خلافهما ؟ لو أن غيره أقدم على ما فعل .. لانجهوا بأصابع الاتهام إليه دون أدنى شك .

الظلام في الداخل يطمس كل شيء . تعثر في شيء قبل أن يصل إلى مفتاح الضوء .. ظن أنها جثة صاحبه . بان كل شيء بعد انتشار الضوء لكنه تجمد في مكانه وتقلص كل عضو في جسده . لا وجود للجثة . القطعة الخشبية الآتمة لازالت في مكانها تلوث المقعد بالدم العالق بها .. والمنتشر حولها . وجثة صاحبه قد اختفت .

.. سرت في جسده قشعريرة مباغته . أحنى عوده الناحل لاللتقاط « طاقيته » الملعونة . شعر بحركة غريبة حوله ، حانت منه التفاتة .. لم يلبث بعدها أن سقط على الأرض مغشيا عليه . فقد سقط جسم ثقیل على رأسه المشحون بأحلام وخيالات غريبة □

تصحیح

وقع سهوا خطأ في اسم كاتب مقال « ابقاعات الرمال في الصحراء » ، الذي ظهر في العدد الفائت ، والصواب هو يوسف خالد ابو بشيت . ولذا اقتضى التنويه .

دَوَامَةُ اللّٰهِ سَلَامٌ

شعر: حسن منصور / مجلس شمس

أَسَفْتُ وَمَا أَرَى أَصْفَى يَفِيدُ
أَرَى الْأَيَّامَ فِي كَرٍّ طَوِيلٍ
تَسِيرُ بِلَا تَوَانٍ أَوْ تَرَاحٍ
وَتَطْحَنُنَا وَلَا تَبْدِي اهْتِمَامًا
وَنَحِيًّا كُلَّ يَوْمٍ مِنْ جَدِيدٍ
وَفِي دَوَامَةِ الْأَيَّامِ نَمُضِي
كَأَنَّا فِي عُبَابٍ فِي ظِلَامٍ
فَإِنْ بَرَقَتْ لَنَا ذِكْرَى تَوَلَّتْ
رَجَعْنَا وَالْحَيْنَ لَنَا رَفِيقٌ
وَزَادَ الشَّوْقُ لِلْمَاضِي قَطْرِنَا
إِلَى حِلْمٍ ، إِلَى عَيْثٍ بَعِيدٍ
نَعْنِي مِثْلَ طَيْرٍ وَهُوَ بِسَمِي
فِي اللَّهِ مَا أَغْلَى الْأَمَانِي
فَلَا نَامَتْ عَيْنُونَ لَا تَرَاهَا

وَلَا مَا ضَاعَ مِنِّي قَدْ يَعُودُ
هَذَا فِي سِيرِهَا خَطْوُ عَيْدٍ
وَلَا قَلْبٍ وَلَا عَقْلٍ يَقُودُ
كَأَنَّا عِنْدَهَا حَبَّ حَصِيدٍ
وَيَبْهَجُنَا مِنَ الدُّنْيَا الْجَدِيدِ
وَمَا اقْتَرَبَتْ لَعِينِنَا الْخُلُودُ
وَنَعْفُلُ وَالْدُرُوبُ هُنَاكَ سَوْدُ
وَشَفَّ الْقَلْبَ وَجَدٌ لَا يَبِيدُ
وَدَمْعُ الْعَيْنِ مِنْ حَزَنِ بِرُودٍ
بَأَجْنَحَةٍ تَتَاجِبُهَا الْعَهْوُ
إِلَى عَمْرٍِ مَضَى وَهُوَ الْبَعِيدُ
وَإِنْ كَانَ التَّغْنِي لَا يَفِيدُ
وَمَا أَحْلَى إِذَا كَانَتْ تَزِيدُ
إِذَا كَانَتْ عَنِ الْأَبْقَى تَجِيدُ





الشوارع الفسيحة والأشجار الباسقة والمجمعات
الحكومية والعمارات السكنية الحديثة ، من الملامح
المميزة لمدينة أبها . تصوير : علي عبد الله خليفة

